الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

وزارة التعليم العالـــي والبحث العلمـــــي
جامعـــــة عين تموشنت بلحـــــاج بوشعيب
كلية الآداب واللغات والعلـوم الاجتماعيـة
نيابة الكلية المكلفة بما بعد التدرج والعلمي والعلاقات الخارجية

Ministère de L'Enseignement Supérieur et de La Recherche Scientifique
Université de Ain Témouchent BELHADJ Bouchaib

Faculté DES LETTRES, LANGUES ET SCIENCES SOCIALES

مطبوعة بيداغوجية

(محاضرات)

تراجم أدبية جزائرية قديمة

محاضرات موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

الميدان: اللغة والأدب العربي

الشعبة: الدراسات الأدبية

إعداد: الدكتور عيسى بخيتي

السنة الجامعية: 2022/ 2023

المحاضرة الأولى:

فن التراجم
المفهوم والغاية

1 . مفهوم التراجم

فن الترجمة نوع من الأنواع الأدبية التي تتناول بالتعريف حياة رجل أو أكثر، تعريفاً يطول الحديث فيه عن تفاصيل يقتضيها مقام المترجم له أو حديث مقتضب عن شخصية حسب المقصدية من هذا التعريف، ويعود أيضا إلى ثقافة كاتب الترجمة ومدى قدرته على رسم صورة واضحة ودقيقة، من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه عن المترجَم له.[1]

وتتقاسم "الترجمة" عبارتها على مجموعة من المعاني والدلات ذات الاصطلاحات المختلفة في العلم والمعرفة، لعل أبرزها ترجمة نص من لغة إلى لغة أخرى مختلفة، أو ترجمة نوازع عاطفية إلى تعبير بالعلامات اللغوية، أو ترجمة لشخصية من الشخصيات. وفي هذا الإطار وحتى نتبين وجوه الالتقاء والاختلاف بين العبارة ودلالاتها نمر عبر مسلك التعريف اللغوي ثم الاصطلاحي.

- **الترجمة لغة**

إن المتفق عليه عند أهل الاختصاص من التعريف اللغوي للترجمة (التراجم) هو شبه اتفاق على أن "ترجم الكلام: بيّنه ووضحه، وترجم كلام غيره عنه: نقله من لغة إلى لغة أخرى، وترجم لفلان: ذكر ترجمته، وترجمة فلان: سيرته وحياته[2].

وهو موضح لما جاء في لسان العرب "ترجم الكلام بينه ووضحه، وكلام غيره نقله من لغة إلى أخرى، ولفلان ذكر ترجمته ، والترجمان: المترجم جمع تراجمْ وتراجمة"[3]

ومنه قسم محمد عبد العظيم الزرقاني "الترجمة" إلى أربعة معان

1 تبليغ الكلم لمن يبلغه، ومنه قول الشاعر:

إنّ الثَّمَانِينَ وبُلِّغْتَها قد أحوجتْ سمعي إلى ترجُمانْ[4].

2 تفسير الكلم بلغته التي جاء بها ، ومنه قيل في ابن عباس إنه ترجمان القرآن.

3 تفسير الكلام بلغة غير لغته ، وجاء في لسان العرب وفي القاموس أن الترجمان هو المفسر للكلم

4 . نقل الكلم من لغة إلى أخرى.

---

[1]- أنظر، محمد حسن عبد الغني، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة.(ص6، 18) 1955.

[2]- أنيس، إبراهيم (إشراف) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع مكتبة الشروق الدولية، ط4، ص83، 2004.

[3]- (ابن منظور) جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مج1 ، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1،1997 ، ص 630 - 711.

[4]- الشاعر العباسي- عَوف بن مُحلِّم الخُزاعي.

- **التراجم اصطلاحا**

و"الترجمة" في الاصطلاح، فهي العلم الذي يتناول سير حياة الأعلام من الناس في أمة من الأمم، تنويها بما امتازوا به وخلفوا من آثار، في مجالاتهم الريادية أو العلمية أو الفنية أو البطولية، عبر مختلف العصور. ويتناول هذا العلم العنصر البشري بمختلف شرائحه وطبقاته في المجتمع، فيشمل الأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء والقادة والعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمتصوفة.. وهلم جرا. ويعتبر هذا "التأليف في مجال التراجم نوع من التأليف التاريخي"[5]. يستلهم من المادة التاريخية عصر المترجم له، كما أنه في المقابل يعزز هو بدوره الحدث التاريخي.

ويرى عز الدين إسماعيل أن "ترجمة الحياة هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته والكشف عن عناصر العظمة فيها وجوانب الانحطاط – إن وجدت في الشخصية المترجم لها – فالترجمة في الواقع عملية تحليلية لكل مركب من عناصر كثيرة مختلفة... ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الانسانية التي تنطوي عليها هذه الشخصية والتي يهم الآخرين الاطلاع عليه"[6]

2 . نشأة أدب التراجم

اهتم المسلمون في تاريخهم القديم بالسير والتراجم اهتماما بالغا نظرا للأهمية التي تحضي بها في ثقافتهم، فقد شكلت قصص الأنبياء والرسل والصالحين وأخبار القرون الغابرة مدوّنة، احتفى بها القرآن الكريم، ونوه بها في قوله عز وجل : "**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ**"[7] واعتبارا من أهمية العبرة التي يشكلها الرجل القدوة لم تجد العرب أحسن من شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**"[8]

ولقد شكلت حياة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، القدوة والأسوة في حياة المسلمين بل البشرية جمعاء دون منازع، وبما أن شخصية الرسول محمد (ص) عماد التشريع والهدي فقد كانت الشخصية الفريدة التي اهم بها المسلمون رمزا ... ومنها جاء الحديث عنها في مختلف مناسبات الأخبار والتآليف، ولقد جاءت "سيرة ابن هشام" مؤكدة على هذا الحدث العظيم، وسابقة في تاريخ التأليف عن النبي (ص). ثم توالت كتب السيرة تأليفا أو شرحا كما فعل أبو القاسم السهيلي في كتابه "الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. ولم تتوقف الكتابة عن سيرة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم إلى اليوم.

وعلى الرغم من أن فن التراجم قد عرف تبكيرا في الحياة الثقافية العربية، إلا أنه لم يعرف بهذا المصطلح إلا "في أوائل القرن السابع الهجري حين استعمله ياقوت الحموي في معجمه الذي خصصه لذوي التآليف

---

[5]– وداد القاضي، معاجم التراجم، تنظيمها الداخلي وأهميتها الثقافية، في" الكتاب في العالم الإسلامي، تحرير جورج عطية وترجمة عبد الستار الحلوجي، عالم المعرفة، الكويت. 2003 (ص82،82).

[6]– عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار النشر المصرية، مصر، د ت، ص244

[7]– سورة يوسف، الآية 111.

[8]– سورة الأحزاب، الآية 21.

من الأدباء، وذلك بمعنى حياة الأديب. وهذا يعني أن اصطلاح" ترجمة "قد جرى استعماله ليدل على" تاريخ الحياة الموجز لمجموعة من الأفراد ضمن عمل واحد، في حين استعمل اصطلاح سيرة ليدل على تاريخ الحياة المسهب للفرد الواحد، ومع ذلك فيمكن إدراج عدد كبير من مؤلفات القرن الثاني الهجري في عداد كتب التراجم"[9] بينما لم يكن مصطلح "تراجم" متداولا في الثقافة العربية إلى حد هذا التاريخ حيث ولج إليها من طريق الآرامية[10].

3. تطور أدب التراجم

لقد حظيت الحضارة الاسلامية بازدهار باهر، وخلد روائع في كل الفنون والعلوم، مما جعل التميز مؤكدا في المجتمع الإسلامي. فلا شك أنه ضمن هذا الزخم من الإنتاج العلمي والمنجز الحضاري، شهدت الساحة العربية والاسلامية بروز عدة شخصيات ملهمة في الزعامة، والاجتهاد العلمي والتطور المعرفي، والتصوف.. الخ. فحين "**اتسع نطاق المعرفة وكثر عدد الأعيان الذين لعبوا أدوارا هامة في تاريخ الحياة العربية والمعرفة الإسلامية والفنون الأدبية، كان من الطبيعي أن تتجه مناهج التأليف إلى الكتابة عن هؤلاء جميعا بشكل يشفي الغلة ويروي الظمأ في نطاق دراسة عَلم بعينه أو عالم بذاته أو شاعر بتفرده أو في نطاق كل ذلك مجتمعا، فكان أن نشأت أنماط من الكتب التي تولي الترجمة لأعيان العلماء وعظماء الشخصيات، وكان من أهم تلك جميعا كتب الطبقات وكتب التراجم**"[11] فقد أدرك علماء المسلمين أهمية القدوة والعبرة من تاريخ الأعلام المتفردة في تميزها العلمي والأخلاقي و..، فجعوا من هذا الشكل فنّا جوهريا خاض فيه المصنفون أشواطا وتخصصات وفروع.

4 . أقسام علم التراجم

ما يميز علم التراجم في تاريخ الثقافة الاسلامية أن الترجمة قد تفرعت إلى عدة أقسام، أبرزها:

- **تراجم الصحابة**

لعل أصحاب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هم خيرة من خلفه على هذه الأرض، لقد تحققت فيهم جميع المثل العليا، فقد كانت أخلاقهم مثالية، وعقيدتهم راسخة، وأقوى حجتهم بالجة في العلم الدين، خاصة وأنهم حملوا في جعبهم سيرة الرسول حية، من أقوال وأفعال، ونواهي وأوامر وإقرار وإنكار، ومن أفواههم تم تدوين السنة المحمدية الشريفة من خلال الروايات الكثيرة التي جرت على أفواههم، فلا غرو أن حياة الصحابة، لهي من أولى الأولويات لدى المسلمين أن تدون وأن تحلل شخصياتهم وأن توثق أخبارهم، ومنه جاءت كتب التراجم حول هؤلاء بشتى الأشكال منها:

1. معجم الصحابة لأبي نعيم.

---

[9]- هاني العمد، 1981 دراسات في كتب التراجم والسير .عمان. ص70.

[10]- أنظر المرجع نفسه..

[11]- الشكعة، د. مصطفى:1973 منهج التأليف عند العلماء العرب – قسم الأدب .دار العلم للملايين، بيروت. ص 533.

2. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.
3. أُسْد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.
4. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

- **تراجم المحدّثين (الطبقات)**

1. الطبقات الكبرى لابن سعد.
2. وتذكرة الحفاظ للذهبي.
3. طبقات الحفاظ للسيوطي

- **التراجم على المذهب أو العقيدة**

وهي التي تذكر تراجم الأشخاص حسب انتمائهم لمذهب معين. ومن هذه الكتب:

1. طبقات الحنفية : مثال كتاب أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري والطبقات السنية في تراجم الحنفية للتقي الغزي.
2. طبقات المالكية : مثال كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض.
3. طبقات الشافعية : مثال كتاب طبقات الفقهاء للشيرازي. وطبقات الشافعية للسبكي.
4. طبقات الحنابلة : منها مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي. وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى، وذيلها لابن رجب.

- **التراجم على فن معين من العلم**

وهي التي ترجم فيها المؤلفون للأعلام حسب تخصصهم في العلم، أو حرفتهم أو ما اشتهروا به. ومنها:

1. طبقات الحفاظ للذهبي.
2. معرفة القراء الكبار للذهبي
3. طبقات المفسرين للداودي.
4. طبقات المفسرين للسيوطي.
5. الفتح المبين في طبقات الأصوليين لعبد الله بن مصطفى المراغي.
6. طبقات الصوفية للسلمي.
7. كتاب القضاة لأبي عمر الكندي

- **التراجم المتعلقة بشخص معين**

وهي التي تختص بذكر سيرة وأحوال شخص بذاته. ومنها:

1.مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي.

2.مناقب الإمام الشافعي كتب فيها ابن كثير والبيهقي وابن أبي حاتم الرازي وابن حجر.

3.مناقب الإمام أبي حنيفة لابن المكي.

4.مناقب الإمام مالك للزواوي

5 . أهمية التراجم

إن الترجمة الشخصية هي خلاصة فكر في أمة وفي زمن محدّد. نستخلص منها تحديات الواقع، ورسم ثقافة المجتمع عامة.. حيث ستصبح تلك الترجمة لها علاقة خاصة بالتاريخ، فتكون قطعة ناصعة مقتطعة من تاريخ أمة.. ذلك أن تاريخ الفرد متصل "بالأحداث العامة، أو منعكسة منها، أو متأثرة بها، فإن السيرة تحقق غاية تاريخية"[12] فتكون صورة تلك الشخصية النموذجية هي صورة أمته، وملمحا من ملامحها.

وقد نستخلص جملة من العناصر ذات الأهمية في الاستفادة من تراجم السابقين:

التعرف على نشأة العلماء الأعمال والأبطال الأماجد وتكوينهم والتحديات التي واجهتهم في الحياة، حتى يتخذ منهم خلف الأمة القدوة، فينسج على منوالهم خيوط النجاح، ويستقر في نفوسهم الايمان بعدم المستحيل في تحقيق الأهداف السامية، وأن هناك دوافع يجني من ورائها القاصد صناعة التفرد في الحياة.

وهذه العبرة تأتي من حافز التفاعل مع سير الخالدين ممن تركوا بصمة في الحياة، وتشهد عليهم آثارهم من مؤلفات ومن إنجازات حضارية، وأعمال إبداعية خالدة.

الوقوف على أعمال السابقين، لتتبدد تمثلات الأسطورة في مخيال الإنسان المعاصر، فينزل ما كان يبدو مستحيلا إلى المتحقق واقعا.

التحقّق من أن الهمة هي التي تصنع الفارق في حياة الأفراد المتميزين في الحياة.

نتعرف على الوسائل التي اعتمدها المتميّزون في تاريخنا، والتي بفضلها وصلوا إلى المجد، واسقاطها على العصر الحالي، فيمكّننا ذلك من معرفة أن السابقين قد حققوا أشياءً عظيمة بوسائل بسيطة، وغالبا ما كان هؤلاء يواجهون تيارات التحدي، من العوز الفاقة، ومن رثاء الحال، لكن نفوسهم كانت كبيرة، وغاياتهم كانت سامية ونبيلة. وهذا الذي تستطيع من خلاله الأجيال اللاحقة المطابقة بين الماضي والحاضر في الوسائل والامكانيات، فلا يكون مبررا أمامه، ويكون التغيير في الأنفس لا في الوسائل، لأن وسائل العصر الحالي تساعد بشكل كبير على تسهيل الوصول إلى الأهداف المرجوة.

[12]– إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر بيروت، ط1، 1996، ص 11.

ويتيح لنا الاطلاع على سير السابقين معرفة مواقف العلماء تجاه السلطة، وثباتهم على الحق، فيكون ذلك إطارا لصناعة الشخصية المعاصرة من خلال الشعور الغامر بالتحول السلوكي بواجب المسؤولية في التضحية.

كما أن سير السابقين تتيح لنا علاقة العالم بالمجتمع، وأنه لا يكون في معزل عن مجتمعه.

التعرف على المناهج المختلفة من كل ابتكره صاحبه للوصول إلى الابتكار والنظريات والتفرد المبدع.

المحاضرة الثانية:

من أدباء العهد الرستمي

(بكر بن حماد التاهرتي)

تعد الفترة الرستمية مرحلة هامة في تاريخ الجزائر السياسي والثقافي، فهي الدولة الأولى التي انفردت بالحكم في المغرب العربي قاطبة (عام 144 هـ) وما كان يميز هذه الدولة أن مجتمعها اتصف بالصبغة الدينية، وأن حكامها (أئمتها) كلهم علماء وأدباء، محبين للعلم والعلماء، ويخصونهم بالعناية والرعاية. ومنه تميز هذا المجتمع بطائفة معتبرة من الأدباء والشعراء، ولعل كل شرائح النخب من المثقفين كانوا شعراء، إلى أن صار يعرف في هذا الكيان: الشعراء الحكام، الشعراء الفقهاء، والشعراء المطبوعين.

1 . مولده ونشأته

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل الزناتي التيهرتي، ولد سنة 200 هـ، تيهرت.

2 . أهم محطات حياة بكر بن حماد

2 . 1. سفره نحو المشرق 217 هـ

عندما بلغ بكر السابعة عشرة من عمره همّ بالسفر، وكان السفر حينها مقوّما من مقومات التكوين والتخصص في المجالات المعرفية والعلمية، فكانت وجهته نحو القيروان عام 217 هـ، ولم تتحدث المصادر عن سبب سفر بكر نحو المشرق، ولا عن وجهته الفعلية، أهي إلى القيروان وبعدها نحو عاصمة الخلافة بغداد، أم أعجبه المكوث بالقيروان فتوقّف قرابة السنة ثم غادرها نحو بغداد، المهم أن بكرا مكث بالقيروان حوالي سنة كاملة، وكانت القيروان يومئذ مرتعا علميا خصبا، خصوصا في مجال الفقه والحديث التي كانت مساجد تونس تزخر بخيرة الأئمة على المذهب المالكي، كالشيخ عون بن يوسف الخزاعي، والإمام سحنون بن سعيد التنوخي (ت 240هـ).... قال بكر بن حماد لما فرغت من قراءة كتبي كلها على عون، وهي كتب ابن وهب"، قلت له: "و الله ما أحب أن يعذب الله أحدا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بسببي بالنار أبطل الله سعيه وصومه وصلاته وسائر عمله إن كنت أخذتها من ابن وهب إلا قراءة، قرأت عليه أنا وقرأ علي ولو كانت إجازة لقلت: إنها إجازة"[13]

لقد ساعت هذه التجربة بكرا حيث تمكن من التحصيل على طائفة من العلوم، تحضيرا للمرحلة المقبلة باتجاه بغداد.

2. 2. السفر إلى بغداد عام 218 هـ والإقامة بها

[13]- محمد بن رمضان شاوش: "الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي، ط1، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966، ص 43.

وصل بكر بغداد في عام 218 هـ، وهي السنة نفسها التي اعتلى فيها الخليفة المعتصم، عرش الخلافة العباسية، هذا العرش الذي مرّ به أعظم خلفاء الدولة العباسية، خاصة منهم الخليفة المأمون الذي وطّن أركان العلم والحكمة في زمنه وترك وراءه تركة جليلة لأخيه المعتصم، فكانت بغداد آنذاك تعج بالعلماء على نحو أبي الحسن البصري، وأبي حاتم السجستاني، والشعراء على غرار دعبل الخزاعي وأبي تمام، وغير هؤلاء.

لقد تحقق لابن حماد شأن وأي شأن، حيث صار شاعرا مفلقا، له حضور عند الخليفة، ففي بلاطه مدح وأثنى، بل ونافح عنه من خلال رده على الشاعر دعبل الخزاني حين هجا المعتصم في قوله:

مُلوُكُ بني العَبَّاسِ في الكُتْبِ سَبْعَـــةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهم كتـــبُ

كذلكَ أهل الكهفَ في الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عدُّوا ، وثامنهم كلبُ

وقد رد عليك بكر منافحا:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطـــــــه ويمشي على الأرض العريضة دعبل

أما والذي أرسى ثبيرا مكانـــــــه لقد كانت الدنيا لذاك تزلـــــزل

ولكن أمير المؤمنين بفضلـــــــه يهم فيعفـــوا أو يقـول فيفعـل

وإني وإن صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه وأعـــدل

2. 3. عودته إلى القيروان عام 239 هـ

بعد مكث دام حوالي واحد وعشرون سنة عاد بكر إلى القيروان، التي كانت مركزا علميا بارزا، يليق بمن تزوّد بالخبرة من بغداد وعاد مسلحا بالأدوات العلمية والمعرفية، والطاقات الإبداعية، بعد التجربة التي خاضها هناك. وعلى الرغم من أن القيروان كانت تتزاحم ساحاتها بالعلماء، فإن بكرا استطاع أن يحجز كرسيا يدرس فيه الحديث وبعض الفنون من العلوم الشرعية.

وقد تفرغ للتدريس عام 274 هـ وكان يحضر مجالس علمه جموع من طلبه العلم من إفريقية والأندلس، خصوصا في شرح الحديث النبوي...

2. 4. مغادرته القيروان باتجاه تيهرت عام 295 هـ

تختلف الروايات عن سبب مغادرة بكر القيروان، باتجاه مسقط رأسه تيهرت، وكان ذلك سنة 295هـ، ومما يروى أن بكرا تضايق من الخلاف الذي وقع بينه وبين الأمير إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب، بعد كثرة الوشايات ضده..

2. 5. مقتل ابنه

بعد خروج بكر من القيروان متجها إلى تيهرت تعرض وهو على مقربة منها إلى سطوة اللصوص فقتلوا ابنه وتعرض هو للجراح البليغة، وقد كان لهذه الحادثة الأثر النفسي الخطير عليه، حيث أصيب بنوبة لم يدم بعدها سوى سنة واحدة وغادر الحياة سنة 296 هـ.

ومما قاله رثاء وحزنا على ابنه عبد الرحمن المغدور به:

بكيت على الأحبة إذا تولوا ولو أني هلكت بكـــوا عليا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الأكباد كيا

كفى حزنا بأني منك خلو وأنك ميت وبقيـــــت حيا

ولم أك آيسا فيئست لما رميت الترب فوقك من يديا

فليت الخلق إذا خلقوا أطاعوا وليتك لم تكن يا بكر شيا

3 . مكانة بكر العلمية

لقد كانت لبكر مكانة علمية مرموقة، باعتباره أحد المحدثين الأجلاء في عصره،

4 . مكانته الشعرية

يعد بكر بن حماد من نوابغ الشعر وشاعرا فريدا في الدولة الرستمية، "استطاع أن يقول الشعر العربي المتين الذي يقف في وجه فطاحل الشعر وأعالمه في القرن الثالث الهجري وهو لم يتجاوز العشرين من عمره"[14] ولا شك أن عوامل كثيرة ساعدة على نبوغ بكر حيث كانت الدولة الرسمية دولة حق وتراعي شروط النهضة بأسبابها العلمية، فقد كان حكامها من ذوي الهمم ومن محبي العلم والأدب، فقد روجوا له وأحدثوا له وسائله وأسبابه، وبالتالي فقد كانت بيئة الرستميين بيئة علم وآداب رشحت بكرا ليكون رائدا في هذا المجال على الرغم من كونه رجل علم بالدرجة الأولى.

كما أن هذه الموهبة صقلت بالترحال وملاقاته لفطاحل الشعراء العرب في القيروان وفي المشرق، خاصة في بغداد حيث كان التغريد الشعري سيدا في البلاط والأسواق الخاصة والعامة، والمحافل المختلفة.

الأخلاق في شعره؛ كما يجب الإشارة إلى أن شعر بكر ابن حماد قد تميّز بالنقاء والسخاء، فقد كان نظيف العبارة ومهذب الكلمة، فقد تنوعت أغراضه أظهر ها أحاسيسه وإنسانيته في قوتها وفي ضعفها أحيانا.. وأهم ما يميز شعره الزهد الوعظ

5 . آثار ابن حماد الشعري

مما يؤسف عليه، أن شعر بكر لم يصلنا كاملا، فلولا بعض الشذرات التي حافظت عليها بعض الكتب الخاصة بالتراجم، لما كان لهذه النتف أن تصل لنا، حيث لم نجد لبكر ديوانا شعريا كبقية أقرانه في المشرق، فقد ضاع الكثير من شعره، ولقد سعى

بلغت عدد الأبيات الشعرية المنسوبة إلى بكر في هذه المدونة عشرة أبيات بعد المئة وهي لا تمثل بطبيعة الحال مجموع التركة الشعرية لشاعرنا ولعل ما يؤكد ذلك عثوري على أشعار أخرى تكمل بعض المقطوعات الواردة في مدونة الدر الوقاد"[15]

---

[14]– الأخضر السائحي، بكر بن حماد شاعر المغرب العريب في القرن الثالث الهجري، وزارة الثقافة، الجزائر، د.ط، 2007 ،ص9.

[15]– جمال سعادنة، التيهرتي بكر بن حماد، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ع 24، . ، جوان 2011 ، ص 195.

المحاضرة الثالثة:

من أدباء العهد الصنهاجي

أبو الحسن بن رشيق المسيلي

1. عصر ابن رشيق

1. 1. السياسي

يعد عصر ابن رشيق من بين أهم الفترات الزمنية تحولا في حياة الجزائر والمغرب العربي عموما، فقد استلم فيه الصنهاجيون (بنو زيري) مشعل السلطان وصار لهم شأن في تسيير شؤون دولتهم الفتية منذ أن غادر الفاطميون باتجاه مصر بنيّة توسيع دولتهم.. وما كان في الحسبان أن ينقلب عليهم بنو زيري لينفردوا بالحكم غير منصاعين فيما بعد لأوامر الفاطميين.

لقد تم الأمر وانقضى عام 361 هـ حين عيّن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي واليا على المغرب ومنه تحول الحكم إلى البربر الأمازيغ بعد أن كان للعرب ومزيجا في فترات[16]..

ولقد نجح بلكين في توطيد الامن والقضاء على النعرات والسيطرة على الفتن .. ولقد عرفت دولة بني زيري تعاقب أبناء الأسرة على الحكم

يوسف بلكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى (**362 – 373هـ / 973 – 983م**)

المنصور بن يوسف بلكّين بن زيرى (**373 – 386هـ / 984 – 996م**)

باديس بن المنصور (**386 – 406هـ / 996 – 1015م**)

المعز بن باديس (**406 – 453هـ / 1015 – 1061م**)

على بن يحيى بن تميم (**509 – 515 هـ = 1115 – 1121م**)

الحسن بن على بن يحيى (**515 – 543هـ / 1121 – 1148م**)

1. 1. انقسام الدولة الصنهاجية وظهور الدولة الحمادية

تعد الدولة الحمادية الفرع الأصيل والعود المتين من شجرة الدولة الصنهاجية (الأم) ومنها انقسم الصنهاجيون إلى بني زيري الشرقي وعاصمتها القيروان، وبني زيري الغربي وعاصمتها المحمدية (المسيلة) حيث مهّد لذلك حماد بن بلكين ببناء القلعة متطلعا إلى الانقسام الذي سوف يخرج من خلاله عن دولة ابن أخيه باديس بن المنصور، بعد محاولة هذا الأخير إدخاله في طاعه وضمه إليه باللين ثم بالقوة واسترجاع ملكه الذي أصبح في قبضة حماد، لكن حماد مرق عن الأصل وطمع أكثر من الولاية التي منحه إياها أخوه المنصور راغبا في الإمارة لنفسه متخذا من رقعة الولاية دولة مستقلة، فلن ينفع ذلك بعد أن دعا حماد للخلفاء العباسيين في سنة (405هـ/1015م) نكاية في الفاطميين، عابسا في الولاء الذي كان بين هذه

[16]– ينظر: رابح بونار، المغرب العربي (تاريخه وثقافته) ،دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، د ط ،د ت، ص 207.

الدولة (الفاطمية) وبني عمه من الزيريين، وهي الشرارة التي أوقدت فتيل الحرب بين حماد وابن أخيه باديس. وعلى الرغم من ميل كفة القوة لصالح باديس ومحاصرته لعمّه إلا أن القدر منح عمرا آخر لحماد ولدولته حين أسلم روح باديس إلى بارئها.. وقد خلف باديس ابنه المعز ليتواصل الصراع والحرب إلا أن وتيرته كانت أقل حدّة وتم الصلح عام 408 هـ بعد أن لجأ حماد إلى السلم وعرض الطاعة على المعزّ، وهدأت بذلك النفوس في هذا العام.

لم يتجرع الفاطميون ما قام به المعز بن باديس من تحول خطير مسّ عاطفة الغضب لديهم واعتبروه طعنة في ظهورهم حينما بلغ به الأمر أن يتجرأ في أمر خطير كالتبرأ من الفاطميين وإعلان الخروج عن الولاء لهم، وإعلان القطيعة للدعوة الشيعية، وما تجرأ واحد من قبله من سلفه على هذا الفعل الجلل، وقد خطب المعز بن باديس للخليفة العباسي القائم (422-467هـ) على منبر جامع القيروان وأمر باتخاذ السواد شعار العباسيين، ونقش اسمه على السكة في الوجه الأول"ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه "لا اله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله." أما الوجه الثاني:" باسم الله ضرب بمدينة القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة.

1. 1. 2. الغزو الهلالي وأثره

لم يكن في الحسبان أن تتعرض دولة قوية إلى الانهيار كما حدث لبني زيري خلال حكم المعز بن باديس، ويتعرض المغرب العربي كله على إثر هذا الفعل إلى التحول السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري، وقد كان عدم التوقع من حيث أن المعتدي لم يكن جيشا نظاميا لدولة عريقة وإنما الغريب أن هذا المعتدي كان من طرف قبائل همج ألبهم الفاطميون انتقاما من عدوهم المعز، وهم الهلاليون الذين استباحوا ما في الأرض يأتون على الأخضر واليابس كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا 2أتوا عليه حتى وصلوا أفريقية سنة (443هـ)[17].

ويذكر ابن خلدون أن الهلاليين " ...أن أفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة، وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين، قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا."[18]

وبهذا الفعل قضي الأمر الذي أدى ببلاد إفريقية إلى التحول من الوحدة إلى الفرقة ومن الدولة إلى الدوليات وفرّ المعز معتصما بالمهدية حيث كانت ولاية ابنه تميم، متخليا عن سلطانه بالقيروان واستمر حكمه هناك إلى أن توفاه الله سنة 453هـ . ولم يخسر المعز المعركة وحده بل خسرت البلاد كلها في أمنها حيث ساد الاضطراب وفي الاقتصاد حيث نال الهلاليون من الأرض التي حرمت زمنا طويلا من الانتاج،

---

[17]- ابن خلدون : العبر، ج6 ،ص 15 -14 - 3 . الهادي روجي: الدولة الصنهاجية، ج1 ،ص 245-246.

[18]- مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب – في عصري الموحدين وبني مرين-، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، 1982م،ص 62،59.

وفي السياسة والمجتمع حيث قسمت البلاد (قسموا بواديها على قبائلهم، وصارت الحواضر محصورة لا يخرج منها ولا يدخل إلا بنفي، ولم يبق إلا شرهم ممتدا وفسادهم على مر الزمان والدهور"[19]

1. 2. الثقافي

تميز الحقل الثقافي في دولة بني زيري والحمادي على السواء بطفوح الفكر المنبعث من رافد القضايا التي تميز فيها الصراع المتمثل في المحور الديني؛ العقدي والفقهي، حيث الصراع بين المذاهب الكبرى: الحنفي الوجه البارز، والشيعي الذي فرضته الدولة الفاطمية واستمر في زمن حلفائهم بني زيري والمذهب المالكي الذي يمثل المذهب الندي للمذهب الشيعي والذي صار له نصير في زمن المعز بن باديس، وكان أكبر المذاهب الذي تعرض أصحابه للاضطهاد والسجن والتعذيب على أيدي الشيعة وتعلق السكان بهذا المذهب، وأصبح مذهبهم الرسمي منذ ذلك الوقت حتى الآن..... واحتدم الصراع بين المذاهب حتى تشكلت مدارس كلامية، وجدل فكري كبير خاصة في القيروان متحمّلة العبء الحضاري كحاضرة علمية لها أثرها في تاريخ الفكر الإسلامي..

1.2. 1.الحركة الأدبية

شهد عهد المعز بن باديس تطورا كبيرا في الحركة الأدبية، وصارت القيروان "وجهة العلماء والأدباء، تشد إليها الرحال من كل فج، لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب وعنايته بهم"[20]. فقد حجّ إيها لكثير من الأدباء راجين النسبة إلى القيروان، والمكوث بها لما كانت تحتفي به من شرف وبما كانت تحفل به من روح علمية وأدبية ، فعجت بعلماء وأدباء على غرار عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي والتميمي النحوي (القزاز) وبن أبي الرجال و أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن متيم الأنصاري (الحصري) وابن شرف وغيرهم كثير، وليس أدل على هؤلاء من كتاب " أنموذج الزمان في شعراء القيروان" لابن رشيق.

2. مولد ابن رشيق نشأته

2. 1. مولده ونسبه

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، ولد بمدينة المسيلة (الجزائر) المعروفة قديما بالمحمدية عام 390 هـ. وكان والده رشيق مملوكاً روميا لرجل من الأزد، يعمل في صياغة الذهب.

1. 2. 2. نشأته

ولد ابن رشيق ميالا للعلم موهوبا في الأدب، وقد حاول أبوه تنشئته على حرفة صياغة الذهب ليرثها عليه، إلا أنه فضل طريق على صياغة الذهب. وقد تحقق له ما أراد ليثبت عزمه، فما أن بلغ السادسة عشر

---

[19]- ابن خلدون : العبر، ج6 ،ص 34.

[20]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء – دار المأمون ، القاهرة، ط 2 ، 1936م ، ج 7، ص.96.

من عمره حتى خط لنفسه طريقا إلى القيروان، فبلغها عام 406 هـ.. تاركا مدينته التي صارت في عام هجرته ذاتها عاصمة للحماديين تحت إمارة حماد بن بلكين، المنفصل عن ابن أخيه باديس أمير الدولة الزيرية. وقبيل وصول ابن رشيق بور قليلة كان قد توفي أستاذه وأحد كبار الأدباء وهرم النقد الأدبي في عصره، ألا وهو عبد الكريم النهشلي، وبعد مجيئه بسنة توفي الأمير باديس وخلفه ابنه المعزّ. فقد كانت هذه السنة التي قدم فيها ابن رشيق إلى القيروان حافلة بالأحداث التي حدث فيها التحول في الجانبين السياسي الذي سيعرف أحداثا خطيرة كما هو مذكور سلفا، ومن الناحية العلمية حيث ترك النهشيلي أثرا بالغا في ابن رشيق الذي صار يشكل الوجه الآخر لعملة النهشيلي النقدية.

2. 3. ملازمته للأمير المعز بن باديس

مدح ابن رشيق حاكم القيروان المعز بن باديس بقصائد حازت إعجابه وكانت سببا في تقريبه له، ثم اتصل برئيس ديوان الإنشاء ب القيروان ، أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ومدحه. ألف له كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه. وقد ولاه علي بن أبي الرجال شؤون الكتابة المتصلة بالجيش. وبقي ابن رشيق في القيروان إلى أن زحفت عليها بعض القبائل العربية القادمة من المشرق فغادرها إلى مدينة المهدية ، حيث أقام فترة في كنف أميرها تميم بن المعز ، ولكنه ما لبث أن ترك المهدية إلى جزيرة صقلية، حيث أقام بمدينة مازر إلى أن وافته منيته.

2. 4. آثاره (مؤلفاته):

خلف ابن رشيق أعمالا كثيرة من تآليف في الأدب والنقد وعلوم وفنون أخرى، ومن بين أهم أعماله[21]:

- العمدة في صناعة الشعر ونقده
- قراضة الذهب
- الشذوذ في اللغة
- أنموذج الزمان في شعراء القيروان
- ديوان شعره (جمع الدكتور عبد الرحمن ياغي)
- ميزان العمل في تاريخ الدول
- شرح موطأ مالك
- الروضة الموشية في شعراء المهدية
- تاريخ القيروان
- المساوي (في السرقات الشعرية).
- ساجور الكلب

21- ينظر كتاب الأعلام للزركلي ، ج 2 ص.191.

- أرواح الكتب

ويعتبر كتابه «العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه» عمدة فعلا في بابه، وقد قسمه مؤلفه إلى أبواب كثيرة منها: باب في فضل الشعر باب في الرد علي من يكره الشعر، باب في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء، باب من رفعه الشعر، ومن وضعه، باب من قضى له الشعر ومن قضى عليه، باب شفاعات الشعراء وتحريضهم، باب البلاغة، باب الافتخار، باب في أغراض الشعر وصنوفه، باب في النسيب، باب في المديح...إلخ.

ومن أروع ما قاله في باب المطابقة يصف بلاغة النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات؛ فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار، إلا الجنة أو النار» فهذا هو المعجز الذي لا تكلف فيه ولا مطمع في الإتيان بمثله.

3. الجانب الابداعي في حياة ابن رشيق

3. 1. ابن رشيق ناقدا

ألف ابن رشيق كتبا في النقد ومنها –خاصة– في نقد الشعر، ويعدّ كتاب "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، من أشهر كتبه في هذا المجال، بل هو أشهر من نار على علم في تاريخ النقد الأدبي العربي على مر العصور... وهو الكتاب الذي خلّد اسمه في زمرة النقاد.

ويعود سبب تأليف ابن رشيق لكتابه العمدة إلى الأسباب التي ذكرها هو نفسه في مقدمة الكتاب إذ يقول: "مع ما للشعر من عظم المزية، وشرف الأبية، وعز الأنفة، وسلطان القدرة، وجدت الناس مختلفين فيه، مختلفين عن كثير منه، يقدمون ويؤخّرون، ويقلّون ويكثرون، بوبوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه، ليكون: (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) إن شاء الله تعالى"[22] ويتضمن الكتاب جملة من المباحث التي لا تخص النقد وحده، وهي ظاهرة قديمة في النقد العربي القديم حيث "جمع فيه بين مباحث البلاغة ومباحث النقد الأدبي مع أشياء في تاريخ الأدب"[23]

أبواب الكتاب

قسم ابن رشيق كتابه إلى قسمين كبيرين، خصّ القسم الأول منه حديثا عاما عن الشعر وفنونه وموضوعاته، وهو قسم نظري أراد من خلاله أن يبيّن بأن الشعر ظاهرة علمية تتجاوز القول إلى فضائل وأهميته ومكانته في تاريخ العرب منذ الجاهلية إلى الاسلام، بل ما كان له من شرف في خدمة الدين الاسلامي فضلا عن ما حمله من ذخيرة تاريخية. ثم التمييز بين الشعراء وطبائعهم وتفاوتهم.

22– ابن رشيق: العمدة، تحقيق د. عبد الحميد هندوي. المكتبة العصرية صيدا، بيروت ط1، 1422هـ/ 2001م، ج 1، ص3.

23– عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي. دار النهضة العربية بيروت، ط2، 1972م، ص286.

وأما القسم الثاني فقد خصّه بفن الشعر في شكله بناءً، وفن قول، وأساليب ومعاني، وما يتضمنه من موسيقى عروضية، مع عرض لآراء بعض من سبقه في هذا الباب. كما يتغلغل في عرضه لبعض القضايا كالسرقات والبديع..

وقد جاءت مجموع أبواب الكتاب مئة وسبعة أبواب، فيه 59 باباً في فصول الشعر وأبوابه، و39 باباً في البلاغة وعلومها (منها : البلاغة ، والإيجاز ، والبيان ، والنظم ، والمخترع والبديع ، والمجاز، والاستعارة ، والتشبيه ، والتجنيس، والترديد، و المطابقة، والتكرار، والاتساع ، والاشتراك ....إلخ) و9 أبواب في فنون شتى. ومن أبوابه الممتعة باب سرقة الشعر وأنواعها: كالسلخ والاصطراف والانتحال والإغارة والغصب والمرادفة والاهتدام والإلمام والاختلاس والمواردة. وهناك أبواب يمكن أن تعين على فهم التراث الشعري ، (منها : ذكر منازل القمر ، في ذكر الوقائع و الأيام ، في الأصول والنسب وغيرها..)

3. 1. 1. كتاب العمدة وأهم القضايا النقدية

أولا: الشعر

يحدد ابن رشيق مفهوما خاصا للشعر وللشاعر فالشعر —عنده– يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي: "اللفظ، والوزن، والمعنى والقافية" والشعر يكون شعرا إذا أطرب وهز النفوس.

وأما الشاعر فليس كل من يطلق عليه هذه التسمية فهو شاعر، إذ يحدد ذلك بشروط يحددها في هذه القاعدة، فيقول: "إ نما سمي الشاعر شاعرا، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى او اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن وليس بفضل عندي مع التقصير"[24].

ثانيا: القديم والحديث

أولى ابن رشيق عناية خاصة بهذه القضية الجوهرية وخصها بباب مستقل في العمدة، وقد كان موضوعيا إذ يرى أن: "كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله"[25]

ثالثا: اللفظ والمعنى

قضية اللفظ والمعنى مشكلة أزلية وهي من القضايا الكبرى في الشعر، وقد خاص فيها المعارك في النقد العربي القديم، بل كانت تمثل جوهر المشكلات في الدراسات الشعرية.

خاض فيها الجاحظ و ابن قتيبة وقدامة والعسكري وابن رشيق وغيرهم من النقاد.

24- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المرجع السابق، ص 116.

25- ابن رشيق القيرواني، العمدة، المرجع السابق، ص 80.

بينما شبه ابن رشيق ثنائية اللفظ والمعنى بالجسم وروحه، فلا حياة لواحد من الطرفين دون الآخر، ولم يكن ابن رشيف ليألو جهدا في ذلك، وإنما اعتبرها من البديهيات بأن اللفظ جسم وروحه المعنى[26].

رابعا: الطبع والصنعة

إن قضية الطبع والصنعة من القضايا الشائكة في النقد العربي، لعلها المعيار الذي أسقط كثيرا من الشعراء الفحول في مزالق الذاتية من قبل النقاد الذي كانوا أنصارا أو خصوما على حد سواء. فكانت الموازنة تقوم عموما على إجراء مثلما حدث مع أبي تمام والبحتري اللذان اختلفت حولهما الآراء في تفضيل أحدهما على الآخر.

بيّن ابن رشيق أن الشعر ال يخرج في طبيعته الفنية عن مذهب الطبع والصنعة فقد حدد مفهوم كل منهما وحدد أيضا أنواع الصنعة فيما نوعين: صنعة تعتمد الطبع العفوي وأخرى تعتمد القصد والتكلّف.

لقد أفرد ابن رشيق لهذه القضية بابا عنونه "باب في المطبوع والمصنوع" وعلى الرغم من فضل ابن رشيق في التنظير لهذه القضية فانه كان في تطبيقه على الشعراء كان أكثر إجحافا في حق بعض الشعراء، أمثال البحتري. [27]

خامسا: السرقات الشعرية

تعددت صفات ونعوت السرقات الشعرية عند النقاد القدامى فاختلفوا في تسميتها وهذه عينة من التسميات (الاصطراف والانتحال والاختلاس...) وقد اعترف ابن رشيق بأن ليس هناك من الشعراء من يسلم من هذا الأمر، فكل منهم لا بد وأن بأخذ من سلفه، وعقد لهذه القضية بابا خاصا في كتابه العمدة جاء فيه: "وهذا باب متسع جدا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفّل"[28] وعلى الرغم من الجهد والبلاء الذي أبلاه في هذا الدرس من خلال باب السرقات فإنه لم يأت بجديد، فكل ما أورده من ملاحظات وآراء كان فد أوردها من سبقه في ذلك على غرار أستاذه عبد الكريم النهشلي[29].

4. ابن رشيق شاعرا

اجتمع في ابن رشيق ما لم يجتمع في كثير غيره، حيث جمع بين العلم في العر والابداع فيه، فهو يعد من أشهر شعراء القيروان، وقد جمع له الدكتور عبد الرحمن ياغي ديوانا شعريا، يظهر فيه قوته الابداعية في الشعر وتمرسه على مدار حياته من أيام الصبا إلى يوم فارق الحياة . وقد أبان فيه عن مقدرة كبيرة في المدح باعتبار أن ابن رشيق كان شاعر بلاط ومقرب من الأمير المعز ومقدرة وجودة في الوصف، فالطبيعة يصف منها

26- بشير خلدون، الحركة النقدية أيام ابن رشيق المسيلي، المرجع السابق، ص 185.

27- ينظر مثلا شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط5 ،1965 ،ص ص 192 -193. .

28- ابن رشيق القيرواني، العمدة، المرجع السابق، ص 282.

29- بشير خلدون، الحركة النقدية أيام ابن رشيق المسيلي، المرجع السابق، ص 226.

الجامد والحي ن طبيعة وحيوان، أليفها ومفترسها، والطور بكل أنواعه البري والأليف، وكان في مجمل ذلك وكأنه يوثق عن أميره المعزّ كلما طرأ طارئ أو كانت مناسبة من المناسبات.. فقد وصف زرافة أهديت له من مصر

و أتتكَ مِن كسبِ الملوكِ زرافـــةٌ شتى الصفاتِ بكونها أثنـــاءُ
جمعت محاسنَ ما حكت فتناسبت في خَلقِها و تنافت الأعضاءُ

وله في البغل وفي الفواكه وأنواع الورود

مـــوزٌ ســـريـعٌ أكلُه مـن قَبلِ مَضغِ الماضغِ
مَـأكلـــــةٌ لآكِـــلِ ومَشـــربٌ لـــسائـــغِ
فالفـــمُ من لينٍ بـــه مَـــلآنُ مثلُ فـــارغ
يُـــخالُ و هـــو بالـغٌ للحـلقِ غـيرَ بالـــغِ

ومن أهم ما جاء في مدح المعز قوله:

ذُمّت لعَينِک أعـــينُ الـــــغِزلان قمـــرٌ أقـــرَّ لحُسنِه القَمَرانِ
و مَشت ولا واللهِ ما حِقفُ النَّـــقا مما أرَتک ولا قضـيـــبُ البانِ
وَثَـنُ المَلاحَةِ غـــيرَ أنّ ديـــانتي تـــأبى عـــليَّ عبـــادةَ الأوثانِ
يا ابن الأعزّة من أكـــابر حِـميَرٍ وسُلالة الأملاكِ من قحـــطانِ
من كلِّ أبلجَ آمـــــرٍ بلِســـانه يَضَعُ السيوفَ مواضعَ التّيجـــان
و حللتَ من علياءِ صبرةَ موضـعاً أكرِم به من موضـــعٍ و مـكانِ
زادَت بناه على الخَوَرنقِ بســـطةً وحشوت أعزَّ حِمى من النّعمان
و غَدا ابنُ ذي يزنٍ بسُـفلٍ دونَه هِمـــماً نزلنَ به عـلى غَمـدانِ

كما أن شعره تناول كل الأغراض الشعرية حتى الخمرة والمجون، والغزل ولعله كان مجيدا في الرثاء وكان صادقا فيه، خاصة لما تعلق الأمر بوفاة المعز على الرغم من الجفاء الذي فرق بينهما إلا أن رثاءه جاء يحمل حزنا ثقيلا

لكل حي وإن طال المدى هلك لا عز مملكة يبقـــى، ولا ملك
ولى المعز على أعقابه فرمـــى أو كاد ينهد من أركانـــه الفلك
مضى فقيدا ، وأبقى في خزائنه هام الملوك، وما أدراك ما ملكوا
ما كان إلا حساما سله قـــدر على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحر وغى خضر البحار إذا قيست به، برك

ولم يجد بقناطير مقنطرة قد أرخت باسمه إبريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا فانظر بأي ضياء يصعد الفلك

ولم يكن رثاءه للأشخاص فقط بل انكسر في نكبة القيروان فرثاها بقوله:

كم كان فيها من كرامٍ سادةٍ بيضِ الوجوه شوامخِ الإيمان
متعاونين على الديانة و التُّقى لله في الأسرار و الإعلان

يؤرخ لاجتياح الهلاليين للقيروان

كَمْ كانَ فيهـا منْ كِـرامٍ سـادة بِيضِ الْوُجوهِ شَوامِخِ كل إِيمـانِ
مُتَعاوِنيـنَ علـى الدِّيانـةِ والتُّقى لله في كل إِسْرارٍ وَكل إِعْلانِ
وَمُهَذَّبٍ جَمّ كل فَضائِـلِ باذِلٍ لِنَوَالِهِ وَلِعِرْضِـهَ صَـوَّانِ
وَأَئِمَّـةٍ جَمَعُوا العُلـومَ وَهَذَّبُـوا سُنَـنَ الحَديثِ وَمُشكِـلَ القُرآنِ
عُلَماءَ إِنْ سَاءَلْتَهُـمْ كشَفُـوا كل عَمَى بِفَقاهةٍ وَفَصاحَةٍ وَبَيانِ
وَإِذا كل أُمورُك اسْتَبْهَمَتْ وَاسْتَغْلَقَتْ أَبْوابُها وَتَنازَعَ كلْ خَصْمـانِ
حَلُّـوا غَوامـضَ كُلَّ أَمرٍ مُشكِـلٍ بِدليلِ حَقٍّ واضِحِ كل بُرْهـانِ
هَجَروا كل مَضاجِـعَ قانِتينَ لِرَبِّهِمْ طَلباً لِخَيْـرِ مُعَـرَّسٍ وَمغـانِ

لقد تناول ابن رشيق شتى الأغراض الشعرية المعروفة، من وصف وخمر، ومدح وهجاء، وغزل ورثاء، وخمر ومجون، وزهد وعتاب، فهو عالج فنونا مختلفة، ولكن مع الأسف كما قلنا في السابق إن معظم شعره قد فقد.

5. علاقة ابن رشيق بالنهشيلي

يعد القرن الخامس الهجري في المغرب العربي مرحلة انتقالية للشعر إذ بلغ ذروة التطور فيها، ونبغ في هذا القرن عدد هائل من الشعراء والأدباء والنقاد ويقف على رأسهم الشاعر ابن رشيق القيرواني الذي كان له ب اع واسع في التجديد في مختلف الموضوعات الشعرية

لقد اشتق غرض المدح في المغرب العربي موضوعات جديدة إلى جانب الموضوعات التقليدية، فقد اتخذ شعراء المغرب مضامين جديدة في المدح متصلة ببيئتهم.

المحاضرة الرابعة:

أدباء العهد المرابطي والموحدي

(1)

ابن محرز الوَهْرَاني

1. عصر ابن محرز

1. 1. السياسي

حياته وعصره

هو أبو عبد الله بن محمد بن محرز الوَهْرَانيّ .

لم تجد كتب التاريخ ولا التراجم ذكرا ليوم محدد لولادته، إذ تذهب بعضها[30] إلى أنه ولد على الأرجح في عهد الدولة المرابطية في بداية القرن السادس الهجري، بمدينة وهران ".. ولقد شبّ بهذه المدينة وعاش بها عدد لا يستهان به من رجال الفكر والثقافة والأدب، ممن ذاع صيتهم وانتشرت سيرتهم عبر مختلف مراحل الحضارة الإسلامية[31] لقد عاش الوهراني بموطنه الأصلي تحت سلطة الدولة المرابطية (التي تأسست بالمغرب على يد يوسف بن تاشفين، وقد تمكن المرابطون من حكم المغرب الأقصى وشطرا من المغرب الأوسط من سنة 524 هـ/ 1130 م إلى سنة 668 هـ / 1269م[32] ، ثم شهد الوهراني سقوط هذه الدولة واستيلاء الموحدين على عرشها (بإعلان المهدي بن تومرت لإمامته ورياسته سنة 515 هـ وقد استطاع الموحدون أن يبسطوا نفوذهم على دول المغرب العربي جميعا وشطر من الأندلس، فوحدوها تحت سلطانهم، حتى سقوط حاضرتها مراكش العام 668 هـ)[33]

ثم إن الجهل يكتنف جوانب التعرّف على حياة ابن محرز في مرحلة تكوينه، وليس هناك من الآثار التي تدلنا على العلوم التي نشأ عليها والحواضر التي انتهل منها، وبكل تأكيد أن تكوينه القاعدي كان تكوينا تقليديا حسب المناهج التعليمية المعتد بها في عصره من قرآن ولغة وأدب، لكن هذا كله لا يسمح لنا بمعرفة شيوخه ولا بيئته العلمية. خاصة وأنه من فطاحل الأقلام الأدبية التي شغلت الناس.

خروجه من الجزائر

1 . إلى القيروان

30- ينظر:يحي بو عزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،: 2 / 183

31- ينظر: بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وفرنسا إلى آخر القرن التاسع عشر.55 – 64.

32- ينظر :يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: 1 / 170.

33- عبد الله محمد عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: 563.

هناك غموض يعتري رحلة ابن محرز إلى القيروان، فلسنا ندري أهي محطة أراد من خلالها جس نبض الحياة ومحاولة الإقامة لو أعطته الظروف شيئا مما كان يطمح، حيث أن ابن محرز لم يكن طالب علم يبتغيه لذاته، وإنما كان هدفه العيش الرغيد والتقرب من البلاط لاعتداده بقلمه وثقته بقدرته على الإنشاء، أم هي محطة عبور إلى مقصد غير القيروان، "....دخلت القيروان بكرة، واشتهيت أخذ الولاية ضحوة، وأتزوج بنت السلطان عشية، فلم تساعدني المقادير"[34]، فالقيروان مركز علمي بارز في المغرب العربي وفي إفريقيا عامة لا يقل عن المراكز الأخرى إذ يأتيه طلبة العلم من كل الجهات ومن جميع المدن لما ضمه من كبار العلماء، فمنذ ((القرن الثاني للهجرة تتابعت قوافل طلبة العلم تحدوها العزيمة القوية، وحب الاطلاع والرغبة في تمتين أواصر اللحمة وتعزيز الإسلام واللغة العربية... وقد أغنى هؤلاء العلماء تلاميذ إفريقيا عن الرحلة إلى المشرق وكفوهم عناء الأسفار والمشاق"[35] لكن ابن محرز الوهراني لم يكن من ذوي العزيمة القوية والنفوس التواقة إلى العلم.

2 . إلى صقلية :

خرج ابن محرز من القيروان باتجاه صقلية، ويذكر هو دون غيره عن هجرته هذه والأرجح أنه لم يجد في القيروان، ما كان يصبو إليه فغيّر بوصلته إلى حيث الرغائب، ولما كانت حياة ابن محرز مليئة بالغائب لكنها مستمدة من الحقائق فإنه قد حل بصقلية وهي في أمن وأمان "**دخلت مدينة صقلية في الأيام المتولية فرأيتها محافل الأوصاف على طريق الإنصاف فعشقها شيطاني فأقمتها مقام أوطاني**"[36] لكن لم يدم هذا الحال وكأن ابن محرز كانت تجحف أمامه السعادة، ويقفر في وجهه المال والغنى، ويعبس في وجهه المجد، وكأنه الشؤم يحل مع حيث حلّ، حيث تغيرت صقلية بعد أن فشي فيها التناحر على الحكم ونالها الاحتلال النورمندي فتحولت سعادتها إلى شقاء و فعبّر عن ذلك الوهراني بقوله: "**فما تقول في الدولة الصقلية؟ فقلت: دم مطلول وصارم مفلول ودولة مائلة، وسعادة زائلة هلك طالوتها فاختلّت، وانقرض جالوتها فاعتلت، وصاروا يمسّكونها باللطف والمدارة بعد العنت والمهارة، وبالهدايا والبراطيل، بعد الجيوش والأساطيل وبالدعاء في المحافل بعد الكتائب والجحافل: ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر**"[37] فلم يعد لابن محرز طمع في هذه البلاد التي أصبحت غريبة في يد الغرباء "**لمّا اختلّ في صقلية الإسلام وضعف بها دين محمد –عليه السلام –، هاجرت الى الشام بأهلي وجعلت جلق محطّ رحلي**"[38]

وليست نفس الوهراني بالنفس التي تقبل العيش في هذا الوضع المزري، بل إنّ من صقلية سيولي وجهه شطر المشرق بادئا بمصر فالشام.

34- المنامات ، مصدر سابق، ص207.

35- محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900 و1962الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 17 و18.

36- المنامات، ص219.

37- نفسه، ص12

38- نفسه، ص97

3 . إلى مصر

هاجر ابن محرز إلى مصر بعد تنغص الحياة بصقلية، وابن محرز لا يرضى بالدوني من مطالبه، فلم يقع خياره على مصر إلا لأن القاهرة في زمن الفاطميين كانت بمثابة بغداد وقرطبة في التنافس العلمي والحضاري، وليس لابن محرز من غرض سوى أنه يصل إلى مبتغاه ومطلبه هو ديوان الانشاء، وقد شهد الوضع بمصر كغيره من الأوطان التي أقام بها الوهراني، وهو المصير نفسه التي عرفته وهران وتحولها من المرابطين إلى الموحدين، وصقلية من بلاد الاسلام إلى بلاد الفرنجة، فقد شهدت الدولة الفاطمة سقوطها وقيام بلدها الدولة الأيوبية عام 597هـ [39] وعلى الرغم من أن هذه الدولة الفتية كانت تولي اهتماما بالغا بالعلم والأدب خاصة، فإن الوهراني لم يكن له أي حظ يمر عبر قناته، حيث كان القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني وغيرهما قد سدوا منافذها.

4 . إلى بغداد

رحل ابن محرز إلى بغداد ليس له فيها من مطمع، فقد كانت البلاد التي طمع فيها قد خاب فيها ظنه، فجاءت هذه الهجرة : "**لمّا تعذّرت مآربي واضطربت مغاربي ، ألقيت حبلي على غاربي .... فما مررت بأمير إلاّ حللت ساحته واستمطرت راحته، ولا بوزير إلاّ قرعت بابه وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلا أخذت سيبه وأفرغت جيبه، فتقلّبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار حتى قربت من العراق، وقد سئمت من الفراق، فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الإسلام فدخلتها بعد مقاساة الضرر مكابدة العيش المرّ [...] وجلست أنتظر أيّام الحج**"[40] وهكذا ينتهي المطاف بابن محرز إلى هذا اليأس من الطمع في الحياة ومكابدة طرقها المحفوفة بالمخاطر والمتاعب، لم يكن له في العراق بعد أن انتهى كل شيء سوى انتظار موسم الحج....

5 . الشام آخر المطاف

كانت الشام آخر محطّة في حياة ابن محرز، وقد استقر الوهراني في دمشق بالغوطة. وكانت هذه النهاية بالنسيبة له، والتحول من منازل السخرية والتهكم إلى التقرب إلى الله والاهتمام الديني، كان ذلك عام 570 هـ ، ثم عيّن إماما في مسجد إحدى قرى دمشق وبالضبط بضارية[41] وبها توفي بها عام 575 هـ وهو ما يثبته ابن خلكان في وفياته "وأقام بدمشق زمانا وتولّى الخطابة بداريا وهي قرية على باب دمشق، في الغوطة و توفي سنة خمس وسبعين وخمسمئة بداريا رحمه الله تعالى، ودفن على باب تربة أبي سليمان الداراني، نقلت من خط القاضي الفاضل وردت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني"[42]

أدب ابن محرز

39- ينظر: خاشع المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، 204 – 206.

40- الوهراني ،المصدر السابق، ص 10.

41- ينظر محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007، ص 96.

42- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ج4، ص 19

لقد خلف ابن محرز الوهراني أعمالا أدبية فريدة يبين عن كعبه العالي في الانشاء والخيال الأدبي، وهي معروفة في الأوساط الأدبية العربية بالمنامات والمقامات والرسائل، وقد جُمعت هذه الأعمال في كتاب واحد، وقام بهذا الجهد مع التحقيق والضبط الأستاذان إبراهيم شعلان ومحمد نغش، ومراجعة عبد العزيز الأهواني ونشرت بعنوان "منامات الوهراني ومقاماته ورسائله" عام 1968م.

أما المنامات فهي ثلاثة أبرزها المنام الكبير الذي يستعمل فيه ابن محرز الخيال المفرط فهو يصوّر أنه بُعث إلى يوم المحشر والتقى هناك بالعلماء والفقهاء والشعراء والوزراء والمتصوفين وغيرهم، تحاور مع بعضهم، ووصف أحوال آخرين، ويبلغ حجم المنام الكبير ثلاثة وخمسين صفحة من الكتاب المجموع، ويقول عنه ابن خلكان: "وَلَوْ لَمْ يَكنْ لَهُ فِيهَا إلاّ المنامُ الكَبير لَكَفَاهُ، فإنّه أتَى فيهِ بِكُلّ حَلاوَة، وَلَولا طُوله لَذكَرْتُه"[43]. بالإضافة إلى منامين آخرين ينتقل من خلالهما الوهراني بخياله إلى العالم الأخروي تارة وعالم الجن والشياطين تارة أخرى، ويسعى إلى لقاء صلاح الدين الأيوبي في الدنيا نفسها.

وأما المقامات فهي أيضا ثلاثة؛ البغدادية وهي التي كتبها في بغداد ،حاول من خلالها سرد بعض المسائل السياسية المتعلقة بمجال الحُكم والحُكّام، كتحدثه عن سيرة عبد المؤمن بن علي وآل أيوب. وأما مقامته الثانية في شمس الخلافة وتُدرج ضمن إطار النقد الاجتماعي، إذ أزاح الستار عن ظاهرة الإخلال بالقيم الدينية والاجتماعية القويمة، والمتمثلة في ادّعاء الكثير من الناس التفقّه في الدين من غير عِلم، وقد جعل الوهراني من شمس الخلافة رمزا حيا لهذا النوع من الناس، بينما حاول في مقامته الثالثة والمسماة " المقامة الصقلية " مدح بعض الرجال في أحد المجالس.

وأما الرسائل فهي متنوعة ذات موضوعات مختلفة وقد بلغت ثلاثة وثلاثين رسالة، أنطق فيها الجماد والحيوان، ففي رسالة كتبها على لسان جامع دمشق، أنطق فيه الوهراني مئذنته، فكتب على لسانها خُطبة على لسان قاضي القضاة، يطلب فيها من السامعين شكر الله تعالى على تشريف دولة أئمتهم من بني العباس بالقاضي" أبو القاسم عبد الله بن درباس[44]"كما كتب على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك تخبر البغلة فيها الأمير بحالها، بعدما أشرفت على الهلاك، لما تقاسيه وتعانيه عند مالكها من مواصلة الصيام، وقلّة الشعير والقضيم رغم ما يملكه سيّدها من مال كثير[45] .

43- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص 19

44- المنامات، ص 95 - 96

45- نفسه، ص 90 - 94

المحاضرة الخامسة:

أدباء العهد المرابطي والموحدي

(2)

أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني

1. عصر ابي يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني

1. 1. السياسي

1. مولده ونشأته

هو يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني، المعروف بأبي يعقوب؛ ولد عام 500هـ/ 1105م بسدراتة، من قرى وارجلان، نشأ في موطنه سدراتة، وأخذ مبادئ العلوم على علماء وارجلان، كأبي سليمان أيوب بن إسماعيل (ت 524هـ)[46]، وقد عاصر أبو يعقوب الشيخَ أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي المرغنِّي.

2 . رحلته إلى الأندلس

لما استوعب أبو يعقوب ثقافة وطنه تاقت نفسه إلى الاستزادة، وكان شغوفا بالعلم، شدَّ الرحال إلى بلاد الأندلس وأقام بقرطبة سنين، حصّل منها مختلف العلوم النقلية والعقلية، وكان بين طلاَّبها مثال النبوغ النادر، والأدب الجمِّ، والاطلاع الواسع"[47]، وقد كان متميزا في شتى الفنون متبحّرا في جلّ العلوم التي كانت سائدة آنذاك، فهو "مؤرخ، مفسر، من أكابر الفقهاء في عصره"[48]وقد كان فريدا إلى درجة التميز، ارتقى في العلم درجات حتى ذاعت شهرته في الآفاق، وهو إذ ذاك شابًّا يافعا طالبا بالأندلس، وقد كان يشَبّه بالجاحظ[49] من طرف رفاقه.

3 . رحلته إلى المشرق

وبعد تحصيله العلمي في الأندلس عاد إلى مسقط رأسه، ولم يمكث طويلا حين عودته حتى شد عصا الترحال، معوّلا على السّفر إلى المشرق الذي كان زاخرا بمنارات العلم والتفوق، ف "زار أشهر حواضره العلمية"[50]ولما كانت همّته عالية، حقّق مُناه بلقائه أكابر العلماء، وشفى غليله بالأخذ عنهم، وبعد هذه

---

[46]- أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تحقيق يحي بن بهون حاج امحمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007، ص 19.

[47]- نفسه، ص 19.

[48]- العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين 9- 20الميلاديين (14/3 هـ)، عمار هلال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص22.

[49]- نفسه، ص232.

[50]- نفسه، ص23.

الرحلة المشرقية عاد ليطوف مختلف دول إفريقيا السوداء "فجاب غربها ووسطها، ثم عاد ليستقر نهائيا في مسقط رأسه ورجلان منقطعا لخدمة العلم"[51]

4 . وفاته

ويروي عادل نويهض رواية يقول: "قيل إنه لم يخرج من داره مدة سبعة أعوام، لم يكن يُرى فيها إلا ناسخا، وللأقلام باريا، وللدراسة فاعلا، أو للحبر طابخا، أو للدواوين مقابلا، أو للكتب مفسرا"[52]، حتى توفي عام 570 هـ.

4 . آثاره العلمية

وقد خلّف الوارجلاني من الآثار أعمالا جمّة في أصول الفقه وفي عقائد الإباضية والتاريخ، أهمها:

- تفسير القرآن الكريم: ذكرت المصادر أنه يقع في سبعين جزءًا، رأى البرادي منه تفسير سورتي البقرة وآل عمران في حوالي سبعمائة ورقة .
- الدليل والبرهان لأهل العقول: ومعظمه في أصول الدين وعلم الكلام، ولكنَّه في الحقيقة موسوعة مصغَّرة لمختلف الفنون: من كلام، وتاريخ، وفلسفة، ومنطق، ورياضيات، وعلوم، وأخبار.. يقع في ثلاثة أجزاء، طبع أكثر من مرَّة، ثمّ حقَّقه الباحث صالح بوسعيد في رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة.
- مرج البحرين: في علم المنطق، وهو في آخر كتاب الدليل والبرهان، شرحه الشيخ عبد العزيز الثميني في كتاب: تعاظم الموجين في شرح مرج البحرين .
- ترتيب مسند الربيع بن حبيب.
- ديوان شعر: ضاع ولم يبق منه إلاَّ قصيدة في رثاء شيخه أيوب بن إسماعيل، دوَّنها الدرجيني في طبقاته .
- القصيدة الحجازية: في وصف رحلته إلى الحجِّ.

5. الوارجلاني رائدا للرحلة الجزائرية

عرفت الرّحلة الجزائرية تبكيرا في مسارها نحو الأقطار والمراكز العلمية والأماكن المقدسة، فقد أحدث الدين الإسلامي منعطفا كبيرا نحو التعارف وطلب العلم وأداء الفرائض التي تقتضي التنقل والسفر، وتحمّل الأتعاب والأعباء، ومن ثم سارع الجزائريون إلى تلبية كل مطلب يقتضي السفر، متجشّمين أتعابه ووعثائه، فارتشفوا طعم الأهوال من أجل التحصيل العلمي، وأداء فريضة الحج على وجه الخصوص. ولما كانت الرّحلة المقصود بها عملية التدوين التي أصبحت تقليدا عند الأدباء والكتاب والعلماء فيما بعد، فقد عرفت الرّحلة الجزائرية تبكيرا في هذا المجال، بل لعلّ الجزائريين من الأوائل الذين خاضوا في هذا الفن، وتمكنوا منه، وإذا

---

[51]- نفسه، ص23.

[52]- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 341.

كانت الرحلة كفن (أدب) قد تأسس في الأدب العربي عموما على يد أبي بكر بن العربي(ت543 هـ) عندما دوّن رحلته عام 485هـ/ 1092م، ثم تضيف المصادر والأبحاث جانب التأسيس إلى ابن جبير (ت 614 هـ) من خلال رحلته الموسومة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" التي كانت عام 578هـ، فبين هذا وذاك قام الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم(**ت 571**) برحلة حجازية، جمع مسارها وحيثياتها ضمن قصيدة مطولة[53] تتضمن 374 بيتا، أبرزَ من خلالها عملا فنّيا في مجال الرحلة، ومن ثم حقّ له أن يتوّج رائدا لأدب الرحلة في تاريخ الجزائر. وقد كانت الرحلة التي قام بها الورجلاني عام 538هـ. فمن هو الورجلاني؟

6 . القصيدة الحجازية (رحلة الوارجلاني)

إن المطّلع على رحلة الواجلاني، يجدها قد حققت كل شروط الأدبية التي اعتمدها جنس الرحلة بتمامه، ولو أنّ الرّحلة كانت في وقت مبكّر جدّا، مما يدل دلالة قاطعة على أن الوارجلاني قطع شوطا كبيرا في تحقيق الريادة في هذا المجال، الذي كانتفيه الرحلة قابعة تتعثّر في ميدان الجغرافية وعلم المسالك والممالك، وقد يشفع النص الرحلي في القصيدة الحجازية للوارجلاني بمدى الإحاطة بتكامل البنية العامة للنص الرحلي دون إخلال، فقد بدأ الرّحّالة نصّه بمطلع يشفّ عن هيكل القصيدة التقليدي في الشعر العربي المنعطف على الغزل، مع الاحتفاظ بخصوصية موضوع الرحلة العام، وهو موضوع شريف المقصد، عظيم الغاية. فالوارجلاني يبدأ قصيدته بغرض الغزل ليس لذاته وإنما يبتغي من ذلك الحصول على التفاضل بينه وبين المقصد العام للرحلة، فهي قصيدة ذات موضوع غاية في الأهمية ليس غرضها غزليّا يريد به مقصدا دنيويا، ومن ذلك قوله في مطلعها:

عَذِيرِي عَذِيرِي مِنْ ذَوَاتِ المَعَاجِزِ ذَوَات العُيُونِ النّجْلِ بِيضِ المَحَاجِرِ
ذَوَاتِ الشِّفَاهِ اللّعسِ بِالظّلمِ واللّمَا غَرَائِرُ خَرْقِ الصّنْعِ سُــودِ الغَدَائِـرِ

وبعد هذا التمهيد دخل في الموضوع مباشرة ابتداء من البيت الخامس:

خَرَجْنَا نَؤُمّ الشَّرْقِ مِنْ حَيّزِ وَارْجَلّان بِفِتْيَانَ صِدْقٍ مِنْ وُجُوهِ العَشَائِر
جَرِيُونَ جوّابُـــونَ كُلَّ تَنُوفَـــةٍ يَحَارُ بِهَا هَادِي القَطَا المُتَصَـادِرِ

وفي هذه العجالة لا نريد التطرّق لجميع مستويات النص، وإنما غايتنا إضاءة جوانب منه لتبيين التناسق بين الخطوط العامة للنص ذي الانتماء لفن الرحلة وتوازنه، حيث تشعبت عتباته وبنيته. وإذا كانت الرحلة تحدّد بمسارها الممتدّ بين نقطتي الانطلاق والوصول، أو بما يعرف بالخروج والعودة، ويميّزه الحديث عن المواقع والمواطن والأمكنة التي تعني بالخطوط الجغرافية، فقد ذكر جملة من أفراد الرّكب الذي احتوته القافلة من قبائل جزائرية شتى، مع وصف لخصال تلك القبائل، ثم ذكر الطريق متعرضا لنقاط هامة ومعالم بارزة، من بداية

[53]– حققها يحي بن بهون حاج امحمد، في إطار مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس من جامعة الأغواط، قسم اللغة العربية وآدابها، وقد طبعت سنة 2007، في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

الرحلة إلى أن بلغوا غايتهم، وبعدها ذكر المناسك بأفعالها وأشواقها، مع كثرة العظات التي تثيرها شخصيته الدينية العالمة. كما نستشفّ من نص الرحلة عناصر هامة، فمن الجانب الاجتماعي تُعنى بطبائع وعادات الأقوام والأمم، كما هي مساحة لمعرفة ظروف المسالك التي تنتابها عوائق منها خطر التعرضّ لسَلْب الصعاليك وقطّاع الطُرق، وطريق السفر ووسائله المعتمدة في زمانه.

وإذا كانت الغاية من الرحلة دينية خالصة فنصّها ذو قيمة أدبية أيضا فهي (القصيدة) تعدّ من البدائع الأدبية التي تُعنى بتنميقها اللغوي، إلى جانب اشتغالها بأغراض شتى من الشعر الذي يستلّ من ظروف الرّحلة وحيثياتها نفاذا إلى أغراض شتى، منها الوصف والمدح والفخر والرثاء والحكمة والشكوى. كما نجد ذاتيته مشحونة بحبّه للبقاع المقدسة، يدل ذلك ما قاله عند فراقها:

كَأَنّ فُؤَادِي يَـوْمَ فَارَقْـتُ مَكَّـةَ ... أَخُو نَشْوَةٍ أَوْ عِنْدَ لَيْثِ المَقَاصِـــرِ
ضَعِيفُ القِوَى بَادِي الصَّبَابَةِ هَائِـمٌ ... شَجِيُّ الهَوَى وَاهِي العُرَى وَالبَصَائِـرِ
إِذَا ذَكَرَتْهَا العَيْنُ فَاضَتْ دُمُـوعُهَا ... وإِنْ ذَكَرَتْهَا النَّفْسُ لَمْ تَتَصَـــابَرِ[54]

ولما كان أدب الرحلة نصّا يتميز بهيكل نمطيّ ونسيج محتمل، فإنه لا تتلاقى جميع الرحلات في محتوى واحد، لأن المفاجآت هي التي تُخضِع النّص لمجرياته العامة، من ثم كان نص الوارجلاني يستمد أغراضه الفنية من معطيات، منها تلك الأحداث التي فاجأت المركب فغرَق من غرَق، وقد كان هَولُها عظيما، وعلى إثرها جاء وصف الوارجلاني دقيقا ذا بلاغة راقية، وتصويرا فنّيا بديعا من ذلك قوله:

لَقَد أَنْذَرَ الرّائِيينَ فَضْلاً بِهَوْلِـــــهِ ... عَلَى الرَّاكِبِ المَلاَّحِ بَلْه المَخَاطِـرِ
إِذَا ضَرَبَتْهُ مَوْجَةٌ زَعْزَعَـــــتْ بِنَا ... فَصَكَّتْ بِجَنْبَيْهَا كَوَقْعِ السَّوَاطِـرِ
فَحَطّمَ مِنْهَا جَلَبَةً فَتَحَطَّمَـــــتْ ... فَكَبَّرَ أَهْلُهَا بِـــكُلّ التَكَابُـــرِ
فَأَنْقَذَنَا مِنْهَا المَلِيكُ بِفَضْلِـــــهِ ... وَأَلْهَمَنَا المَعْرُوفُ خَيْرَ الأَوَامِـــرِ
فَلَمْ يَنْجُ مِنَّا غَيْرَ أُنَاسٍ قَلاَئِـــلٍ ... عَلَى ظَهْرِ أَلْوَاحٍ عرَادِ المَسَامِـــرِ
إِلَى اللهِ أَشْكُو فَقْدَ مَنْ لَسْتُ وَاجِدًا ... لَهُ مَثَلاً فِي سَائِرِ الخَلْقِ بَائِـــرِ
وَلَهْفِي عَلَى السَّادَاتِ مِنْ آلِ عامِـرِ ... ذَوِي المَجْدِ وَالأَخْطَارِ مِثْلُ الجَوَاهِرِ
وُجُوهُهُم مِثْلَ الدَّنَانِيرَ زِينَـــــةً ... وَأَخْلاَقُهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الزَّوَاهِـــرِ
وَمِمَّا شَجَانِي وَاعْتَرَانِي وَهَمَّـــــنِي ... فَبِتُّ بِهِمْ فِي الفُؤَادِ مُخَامِـــــرِ[55]

وإذا جاءنا بالفخر، فهو يحاكي في ذلك ما كان منه في عصوره الأولى فكأنّك تقرأ إنشاد عنترة العبسي، أو عمرو بن كلثوم، مع حداثة المعنى، مثل قوله:

وَعَادَتُنَا الإِحْسَانُ للنَّاسِ كُلَّهُـم ... وَعَادَاتُهُمْ فِينَا قَبِيحُ المَصَـــادِرِ
فَدُونَكُمُوهَا مِثْلَ عِقْدٍ مُنَظّـــمٍ ... مِنَ الدُّرّ وَالياقُوتِ صَافِي الجَوَاهِـرِ
تَلُوحُ قَوَافِينَا بِحُسْنِ بَيَانِهَـــــا ... وَحُسْنِ مَعَانِيهَا كَوَشْيِ الجَبَائِـــرِ

---

[54]- القصيدة الحجازية، مصدر سابق، ص 57.

[55]- نفسه، ص 59.

وَأُنْشِدُهَا بَكْرًا إِذَا مَا تَنَاشَدَتْ تُصِيخُ لَهَا الأَسْمَاعُ مِنْ كُلِّ شَاعِـــرٍ
وَيَغْلَا لَهَا مَهْرٌ وَيَعْرِفُ فَضْلُـهَا وَتُعْطِي مِنَ الخُطّابِ أَفْضَلَ مَاهِـرٍ[56]

وفي مثل قوله أيضا:

وَمَا ضَرَّنِي مَا فَاتَنِي بَعْدُ نِسْبَـتِي خَلَا الشُرَفَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَعَامِـرٍ
إِذَا افْتَخَرَ الأَقْوَامُ يَوْمًا بِفَخْرِهِمْ فَنَحْنُ بِهِ أَوْلَى بِعِلْمِ الجَمَاهِـــرِ
وَإِنْ فَخِرُوا بِالمَجْدِ وَالحَمْدِ وَالنَدَا يُشِيرُونَ يَوْمًا نَحْوَهَا بِالشَّنَاتِـــرِ
لَنَا هِمّةٌ تَعْلُوا عَلَى كُلِّ هِمَّـــــةٍ وَأَمْوَالَنَا تُوَفِّي عَلَى كُلّ دَاثِـــــر
وَلَا جُودٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلاَ مَالٌ إِلَّا مَا أَتَى بِالمَتَاجِـــرِ
وَيَفْتَخِرُ الأَقْوَامُ بِالمَالِ وَالنَّـــدَا وَقَدْ سَرَقُوهَا مِنْ جَمِيعِ الحَوَاضِرِ[57]

كما نجد أن الوارجلاني بعد طول غياب عن الأهل والبلد، يحنّ وينكسر عطفه نحوهما بالرغم من أن زيارة الحجّ كانت فيها من الاحتضان الحميم ما جعله يتأسّى كثيرا عند مفارقته للحرم، بَيْد أن عاطفته الإنسانية لانت بعد كل خطوة نحو موطنه إلى الاشتغال بالأهل فردّد يصرح ويفصح:

عَلَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُهَا مِنْ قَصِيـدَةٍ وَقَلْبِي مَشْغُولٌ وَهَمّي وَخَاطِـــــر
بِحِلّ وَتِرْحَالٍ وَطُولِ مَشَقَّـــــةٍ وَشَقَّةِ بَعْدِي عَنْ بَنِي الأَصَاغِـــرِ
وَتِذْكَارُ أَهْلِي طَالَ نَأْيِي عَنْهُـــمْ وَأَرْحَامُ قُرْبِي مِنْ أَهَالِي الأَوَاصِـــرِ
وإِخْوَانُ صِدْقٍ فِي المَلَمَّاتِ كُلِّهَا هُمْ نَاصِرِي فِي الأَمْرِ يَوْمَ التَّنَاصُرِ[58]

ويختمها بأبيات طوال فيها من الرهبة، كما فيها من الوعظ الكثير، يخص منها سبعة عشرة بيتا بظاهرة أسلوبية يكرر فيها صدر أبياتها بينما يغيّر في عجُزها من ذلك قوله:

وَيَا لَهْفَ نَفْسِي كَيْفَ ذُلّي وَحَيْرَتِي إِذَا قِيلَ تقدّ لِلحِسَابِ وَنَاظِـــــرِ
وَيَا لَهْفَ نَفْسِي كَيْفَ ذُلّي وَحَيْرَتِي إِذَا قِيلَ هَذَا يُوسُفُ غَيْرَ شَاكِـــــرِ
وَيَا لَهْفَ نَفْسِي كَيْفَ ذُلّي وَحَيْرَتِي لِفَصْلِ القَضَاءِ فِي يَوْمِ مُوفٍ وَغَادِرِ[59]

ونص الرحلة في محتواه أمور كثيرة منها ما يعنى ببعض المواقع والمواطن الغريبة لذا تعتبر هذه الرحلة بمثابة معجم بلدان ومسالك، إلى جانب احتوائها على جملة من القبائل الجزائرية التي أعطاها أوصافا متعدّدة في الشرف، مثلما نجد كثيرا من الأمور التي تستحقّ التفرّغ لها بالبحث الممعن، إلى جانب أنها تشفّ عن شخصية الوارجلاني ذاته الغارقة في التضرّع لله وابتغاء مرضاته.

---

[56]- نفسه، ص 74.
[57]- نفسه، ص 73.
[58]- نفسه، ص 74.
[59]- نفسه، ص 76.

المحاضرة السادسة:

العهد الزياني
(1)
أبو عبد الله بن خميس

1. الجانب الشخصي في حياة ابن خميس

1. 1. عصر ابن خميس

1. 1. 1. السياسي

عاش ابن خميس في زمن الدولة الزيانية الفتية، فقد كان في أول حياته لا تزال تلمسان تحت عرش مؤسسها يغمراسن بن زيان 633 هـ إلى عام 681 وقد خلفه ابنه أبو سعيد عثمان الأول الذي توفي سنة 703 هـ، والحصار المريني لا يزال قائما فخلفه ابنه أبو زيان محمد في السنة نفسها، مواصلا الصمود وعدم الاستسلام. فيكون ابن خميس قد عايش سلطانيين من سلاطين بني زيان، في مجدها الأول.

لقد حكم يغموراسن قرابة نصف قرن من الزمن، خاضها كلها في معارك وهو المعروف بالشجاعة والبسالة في النوائب، من أجل تقوية عود الدولة والحفاظ عليها في وجه الخطر المريني على الغرب والحفصي من الشرق، لكن تغيّر الحال في زمن ابنه أبي سعيد وجاءه الخطر المنتظر الذي قبل عليه المرينيون حيث شرعوا في الهجوم على تلمسان منذ سنة 693 هـ، إلى أن حاصر السلطان المريني يوسف ابن يعقوب سنه 698 هـ وهو الحصار الذي دام قرابة ثمانية سنوات أحكم فيه المرينيون "الحصار وشددوا الخناق وبنو بجانبها مدينة المنصورة حيث جثم بها يوسف بن يعقوب لا يبرحها ولا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته"[60] وعلى الرغم من الويلات التي عرفها أهل تلمسان جراء الحصار من معاناة طويلة، فإنهم لم يفتحوا المدينة وقاوموا كل أشكال القمع والحصار، ولم يسمحوا للمرينيين بدخول المدينة، إلى أن جاء الخبر السعيد بموت السلطان المريني سنة 706هـ ووقوع فتنة في العرش المريني الذي لم يجد جيشه بدا من العودة إلى موطنهم[61].

1. 1. 2. الثقافي

ورثت تلمسان عن الموحدين خلاصة الصراع العقدي والفكري بين فقهاء المالكية المنتفضين ضد المذهب الظاهري، ونبد عقيدة المهدي الباطلة وعصمته التي كانت معتقدا شائعا، وأن لا مهدي سوى

---

[60]- محمد عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 100

[61]- المرجع نفسه، ص 102

عيسى عليه السلام[62] فما تحققت دولة الزيانيين إلا وقد ورثت الكثير من مكتسبات الدولة الموحدية من أفكار ناتج عن صراع الأفكار الدينية التي تركت آثارا في تطور الحياة الفكرية كان الأدب مجالا من المجالات المستفيدة من هذا الحراك.. وقد استطاعت تلمسان أن تشيع العلم في الناس، وتوفر لهم بيئته، وتنشئ لهم المراكز التعليمية، فبدأ وفود العلماء من كل صوب طالبين خدمة السلطان، ومتمركزين في أعلى مراكز التعليم فصارت تلمسان حاضرة للعلم والأدب وذاع صيت الكثير من العلمان على غرار التنسي وابن مرزوق وابن خميس وابن هدية .....

1. 2. نشأة ابن خميس وتعلمه

هو محمد بن عمر بن محمد الحجري الرعيني، أبو عبد الله التلمساني، المعروف بابن خميس. يعود نسبه إلى اليمن (حمير وحجر ذي رعين) [63]، وقد قطع ابن خميس الشك باليقين في هذا حين صرح بذلك في قوله:

وإن أنتسب فإني من دوحة تقّل الأنساب برد ظلالتـــها
من حمير من رعين من ذرى حجر من العظماء من أقيالها[64]

ولد ابن خميس عام 650 هـ، هذا ما يجمع عليه جل المؤرخين في تب التراجم، في حين نجد نويهض في معجمه قد أرّخ لمولده في عام 645 هـ. وسواء كان تاريخ ميلاده الصحيح الأل أو الثاني، فإن عمر الدولة الزيانية لم يزل حديثا إذ لا يتجاوز 17 سنة من عمره على أصقى تقدير، ومنه يكون ابن خميس قد ولد مع ميلاد الدولة الزيانية تقريبا وترعرع في أحضان ربعانها.

1. 2. 1. نسبه.

1. 2. 2. نشأته

نشأ ابن خميس بتلمسان مسقط رأسه وترعرع في ربوعها وقد استوت بيئتها في نفسه وكان من أشد الناس حبا لتلمسان لما تميّزت به من هواء وماء وطبيعة، وهو ما جعله يصرح أنينا وحنينا حينما غدر به الزمن وأخرجه مضطرا من تلمسان...

وعهدي بها والعمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجيبن ولا مطـخ
قرارة تهيام ومعنى صبابـــــة ومعهد أنس لا يكذبه لطـــــخ
كأني فيها أرد شير بن بابــك ولا ملك لي إلا الشبيبة والشرخ[65]

---

[62]-ينظر طاهر توات، ابن خميس وشعره ص 24.

[63]- عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، د ت، ص 15.

[64]- نفسه، ص 17.

[65]- نفسه، ص 62.

نشأ ابن خميس في وسط فقير لا يساعد على التحصيل العلمي ولا على الرفاه الاجتماعي، حيث كان لا مأوى له إلا الفنادق ولا فراش إلا سلائخ الضأن[66] كما يذكر ابن خلدون (يحي) عن تلك الحال التي كان عليها ابن خميس بقوله: "فمن أغربها ما حدثني غير واحد من الثقات أن الفقيه المذكور (يعني ابن خميس) كان مسكنه بيت فندق وفرشه سلائخ الظأن لا غير"[67] ولعل حسب بعض المؤرخين فإن تصوفه وزهده يرجح أن يكون نتيجة لظروفه القاسية جراء الفقر والعوز الذي جعله منزويا. وربما تفسير ذلك نجده في قول ابن خميس نفسه في هذا المقطع الذي يرى فيه أن أقرب الطريق إلى التصوف هو الفقر الذي قليل من يدرك هذه الغاية:

الفقر عندي لفظ دقّ معناه من رامه من ذوي الغايات وعنّاه

كم من غبي بعيد عن تصوره أراد كشف معماه فعمـــــاه[68]

ويبقى ابن خميس غامضا كغموض حياته الملبدة بسحب الفقر والعوز، فهو لا يعرف من ناحية حياة عائلته إلا ابن أبيه الذي جاء به صاحب معجم أعلام الجزائر[69] ولا من ناحية شيوخه الذين أخذ عنهم شتى المعارف والعلوم، في بيئة كانت تغص بالعلماء والمشايخ. لكن المرجح أن ابن خميس أخذ من كل فن بطرف، ولا نشك أنه أخذ علوم الشريعة كالفقه والعلوم الانسانية كالفلسفة وعلوم اللغة، ولا يكون أعرف بأحوال تلمسان منه وهو الشاهد عليها ومسجل اعترافه أنها كانت تضاهي أعرف المدن الاسلامية حضاريا:

تلمسان لو أنّ الزمان بها يسخو منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ[70]

كما أنه لم يصلنا من أخبار عن عمله، ونشاطه في الكسب، ولا نشاطه العلمي لفقدان المادة التاريخية التي تزودنا بذلك، إلا ما جاء من المتأخير عن عصره كيحي بن خلدون الذي يذكر أنه تولّى رئاسة ديوان الانشاء[71] في أيام السلطان أبي سعيد بن يغمراسن، وهو منصب كبير لا بد وأن شأن ابن خميس له ما له من القيمة العلمية والأدبية، فقد أوصله قلمه إلى هذا المقام الرفيع.

2 . الرحلة والهجرة

2. 1. خروجه إلى فاس

خرج ابن خميس إلى فاس التي يبدو أنّ الجو لم يَصْفُ له فيها، فقد عاداه بعض أهلها وهو ما ذكره هو في قوله:

---

[66]–انظر، لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ص 528.

[67]–يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 40.

[68]– أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح احسان عباس، دار صادر بيروت1968 ، ج7، ص 231.

[69]–عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 135.

[70]–المنتخب النفيس ، مصدر سابق، ص 95.

[71]– بغية الرواد، ج1، ص 40.

ومن العجائبِ أن أقيم ببلدةٍ يومًا وأسلمَ من أذى جُهالها

شُغلوا بدنياهم أما شغلتهم عنّي فكم ضيّعتُ من أشغالها

حُجِبوا بجهلم فإن لاحتْ لهم شمس الهدى عبثوا بضوء ذُبالها[18]

خلافه مع السلطان أبي سعيد بن يغمراسن وخروجه من تلمسان

تولى سعيد بن يغمراسن عرش الدولة الزيانية عام 681 بعد وفاة والده، وكان قد جلب إلى قصره الشاعر ابن خميس ليتولى رئاسة ديوان الانشاء، وقد كان ابن خميس زيانيا حتى النخاع يمدحهم ويدافع عنهم بشعره، ثم ما لبث أن انقلب هذا الود إلى عاقبة سيئة وخلاف بين الشاعر والسلطان، ومرد ذلك إلى حصار المرينيين للزيانيين وتطويق مدينة تلمسان، والمعاناة التي سببها الحصار وليس هناك من مخرخج يلوذون منه ولا طوق نجاة، وكان لابن خميس في ذلك رأي متهما السلطان بأنه كان السبب في ما آلت إليه أوضاع البلاد وصارت إليه أحوال الناس، ونصحه على الاستسلام حتى لا يعرض الناس إلى الهلاك، فلما كان غضب السلطان عليه، أوجس على نفسه من الهلاك[72] الذي كان وشيكا منه وتسلل هاربا من أعز البلدان إليه باتجاه سبتة.

2. 2. هجرته إلى الأندلس

2. 2. 1. في سبتة

خرج ابن خميس من تلمسان عام 703هـ الحصار قائم على تلمسان، وجهته مدينة سبتة، ولما حلّ بها أُعب بها شديد الاعجاب، واستحسن الاقامة بها، فقد توفرت له شروط الاقامة فسعى إلى مدح أميرها طالب العزفي مشيدا به وفي الوقت نفسه هجا أمراء تلمسان:

تركت لميناء سبتة كل نجعة كما تركت للعزّ أهضامها شمخ

وآليت أن لا أرتوي غير مائها ولو حلّ لي في غيره المنّ والمذخ

وحسبي منها عدلها واعتدامها وأبحرها العظمى وأريافها النّفخ[73]

وأملاكها الصيد المقاولة الألى لعزمهم تعنوا الطراخمة البلـــخ

كواكب هدي في سماء رياسة تضيئ فما يدجو ضلال ولا يطخو

ثواقب أنوار ترى كل غامــض إذا الناس في طخياء غيّهم التخّوا

وروضات آداب إذا ما تأرّجت تضاءل في أفنائها الرّمـــــخ

وأبحر علم لا حياض روايــة فيكبر منها النضح أو يعظم النضخ

---

[72]-انظر الاحاطة في أخبار غرناطة، ص 542 - 543.

[73]-المنتخب النفيس، ص 101.

رياسة أخيار وملك أفاضل كرام لهم في كل صالحة رضخ
أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد يساد بها إلا وأنت لها سنخ
بني العزفيين أبلغوا ما أردتم فما دون ما تبغون وحل ولا زلخ
ولا تذروا الجوزاء تعلو عليهم ففي رأسها من وطئ أسلفكم شذخ[74]

2. 2. 2. إلى الأندلس

لم يمكث ابن خميس في سبتة على الرغم من قربه من أميرها بسبب مكر مكره به النحوي ابن أبي الربيع وتحريض طلبته عليه بإحراجه، ليولي وجهه بعدها شطر بلاد الأندلس (غرناطة) عام 703هـ، حيث وجد عند وزيرها ابن الحكيم ما اتفق مع مطلبه وآنس وحشته من غربة، فقد وجد ابن الحكيم في ابن خميس ما تؤثره المجالس ووجد ابن خميس في ابن الحكيم العالم والأديب من جهة والحماية والاعتراف من جهة أخرى فأغدق عليه حتى ما وجد ابن خميس سوى أن يقول:

خوّلتني ما لم تسعه يدي فأصابني من كثره غمت
شقّ أياد كلّما عظمت عندي تلكأ خاطري الهتّ

وإنه ليعترف أيضا بحماية ابن الحكيم بقوله:

ولولا جوار ابن الحكيم لما فات نفسي من بني الدهر إقماء
حماني فلم تنتب محلّي نوائب بسوء وم ترزأ فؤادي أرزاء
وأكفاء بيتي في كفالة جاهه فصاروا عبيدا لي وهم أكفّاء
دعاني إلى المجد الذي كنت آملا فلم يك لي عن دعوة المجد إبطاء
وبوّأني من هضبة المجد قلعة يناجي السّها منها صعود وطأطاء
إخوان صدق من صنائع جاهه يبادرني منهم قيام وإيلاء
سراع لما يرجى من الخير عندهم ومن كل يخشى من الشر أبراء

2. 2. 3. وفاة ابن خميس

توفي ابن خميس سنة 708 هـ وهي السنة التي عم الاضطراب السياسي في غرناطة، وقد شعر ابن خميس لهذا الاضطراب وكان من إرهاصه ما جاء في آخر ما قاله:

لمن المنازل لا يجيب صداها محيت معالمها وصمّ صداها[75]

---

[74]- المنتخب النفيس، ص 101 - 106.

[75]- نفح الطيب، ج 5، ص 362.

ويقال أن هذا البيت كان مطلعا لقصيدة أراد أن يمدح فيها ابن الحكيم بمناسبة عيد الفطر لكن القريحة نضبت عن قول الشعر، ولما كان العيد تحقق الذي كان إرهاصا فقد قتل ابن خميس وقتل في اليوم نفسه الوزير ابن الحكيم[76]

3. ديوان ابن خميس

3. 1. في حكم المجهول هناك ديوان شعر كامل لابن خميس جمعه القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الحضرمي، هذا ما ذكره عبد الوهاب بن منصور وهو في جزء أسماء "الدر النفيس من شعر ابن خميس"[77] فلم يعرف لهذا الديوان أي خبر ولا إلى أي مآل آل، والمرجح حسب بعض التوقعات أنه قد تعرض لنفس مصير ما تعرض له التراث العربي الاسلامي في الأندلس التي أمر الكردينال خمنيس مطران طليطلة عام 1499، بل لم تكن هذه المحرقة الوحيدة وإنما أعمى الحقد الصليبي الأمة الاسبانية فأتت على هذا التراث في كل مرة يتاح لها المجال لذلك.

وهناك احتمال آخر وهو أن آثار ابن خميس تعرضت للحرق في زمن "كانت شائعة في عصر الشاعر وهي إحراق كتب كل من يتهم بالزندقة، كلسان الدين ابن الخطيب الذي اتهم بالزندقة فجمعت كتبه عندئذ وأحرقت"[78]

3. 2. في المنتخب النفيس من شعر ابي عبد الله بن خميس

وهو الكتاب الذي نشره عبد الوهاب بن منصور، بمطبعة ابن خلدون، تلمسان، عام 1365هـ،

وهو عمل تقصّى من خلاله مجموعة من المصادر استخرج منها 15 قصيدة، أثبتها مع شرح بعض ما وجب شرحه.. وعلى الرغم من حجم الديوان الذي يبدو مقتضبا فإنه يحمل قيمة فنية وتاريخية كبيرة، ويعد من أهم المصادر التي جمعت شعر ابن خميس. والكتاب بالإضافة إلى القصائد فإنه يحمل مقدمة عرف من خلالها بيئة ابن خميس وشخصيته في حدود 60 صفحة من الكتاب.

شعر ابن خميس بين التصوف والفلسفة

ما جُمع من أشعار ابن خميس لا يعدّ كافيا لمعرفة شاملة بحقيقة شخصيته، التي يكتنفها الغموض في بعض جوانبها في غياب تام للمصادر التي تتحدث عنه.. إن ملامح قصائده توحي بالفلسفة الصوفية كما أنها تدل على رفعة مقامها الفني واستقرار مستواها، كما أنه في غياب شبه تام للنقد في عصره أشكل على فهم خصائص توجّه ابن خميس في الحياة وفي الفكر، كما أنه يؤول إلى احتمال ضعف مستوى التلقي في بيئته وعدم ارتقاء جمهوره إلى إدراك فلسفته الشعرية، وهذا مستوحى مما ذكره المقرّي في كتابه أزهار الرياض، أن أبا إسحاق ال تّنسي لما توجّه من تلمسان إلى بلاد المشرق، واجتمع هناك مع قاضي القضاة **بن دقيق**

---

[76]- المنتخب النفيس ، ص 40..

[77]- المصدر نفسه، ص 56..

[78]- طاهر توات، ابن خميس وشعره ص 111.

العيد، فلما سأل التّنسي عن ابن خميس :"كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله ابن خميس، وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله، فبقي الشيخ أبو إسحاق التّنسي متعجبا، وقال من يكون هذا الذي حليتموه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلدي فقال له هو القائل: " عجبا لها أيذوق طعم وصالها " فقال له: إن الرجل عندنا ليس بالحالة التي وصفتم إنما هو عندنا شاعر فقط، فقال له: إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيق بما وصفناه"[79]

عجباً لها أيذوق طعـــم وصالها — من ليس يأمل أن يمر ببالـــها
وأنا الفقيد إلى تعلـــة ساعـــة — منها وتمنعني زكاة جمالـــــها
كم ذاد عن عيني الكرى متألق — يبدو ويخفي في خفي مطالـها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا — كتضاؤل الحسناء في أسمالها
وابن السبيل يجيء يقبس نارها — ليلا فتمنحه عقيلـــة مالـــها
يعتادني في النوم طيف خيالها — فتصيبني ألحاظـــها بنبالـــها
كم ليلة جادت بـــه فكأنـــما — زفت علي ذكاء وقت زوالـــها
أسرى فعطلها وعطـــل شهبها — بأبي شذا المعطار من معطالها

وما يعزز قولنا أن ابن خميس خلال إقامته بفاس خلال رحلته التي كانت في 682 هـ قد اتهم بالزندقة، تلك التهمة التي اتهمه بها الفقيه ابن هديّة القريشي وقد كان هذا الأخير يريد القول بأن ابن خميس يتعاطى الفلسفة وبالتالي الخروج عن الشرع، وهي التهمة التي كانت كافية لمثول المتهم أمام المحاكمة التي جرت في مدينة فاس، فحكم عليه فقهاء فاس بالإلحاد والزندقة ، على الرغم من أن حجته كانت قوية، ومع ذلك صدر ضده الحكم عليه بالإعدام ، لكن ابن خميس استطاع أن يفر بجلده إلى بلده تلمسان[80].

وفي قصائد ابن خميس ما يشير صراحة إلى التصوف تصريحا لا تلميحا.

3. 3. في موضوعات شعر ابن خميس

المدح: لم يكن المدح غرضا عفويا ولا تملقا ولا نفاقا من ابن خميس الذي كان مقلا في هذا الغرض، ذلك أنه لم يكن مادحا أحدا إلا عندما يكون صادقا مع نفسه وغير منافق في ممدوحه لأنه لم يكن يطلب مالا من أحد ولا جاها، وهو الزاهد كما هو معروف، ولقد مدح بعض الشخصيات كابن الحكيم الوزير الذي أكرم وفادته في غرناطة، ومدح ابن رشيد وبن كماشة عامل الوزير ابن الحكيم، وقد مرّ بنا بعض الشواهد من هذا الغرض.

الفخر: لم يكن في شعر ابن خميس من غرض الفخر إلا ما كان عارضا تحدث من خلاله عن نسبه العربي.

---

[79]. انظر لمقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ص 322 – 323 .

[80]– نفح الطيب، ج 5 ص361 .

ولنا مفاخر في القديـــم شهرة كالصبح في وضح وفي إبلاج
منا التبابعة الذين ببابهـــم كانت تنيـــخ جباة كل خراج
ولأمرهم كانت تدين ممالك الد نيا بـــلا جبـــر ولا إحـــراج
ومن يقتدح زنـــدا فإن زنادهم في الجود واريـــة بلا إحراج
أبوابهم مفتوحـــــة لضيوفهم أبدا بلا قفل ولا مـــــزلاج[81]

ويفتخر أيضا بذاته شأنه شأن كل الشعراء في اعتزازهم بأدبهم، وقدرتهم الشعرية.

إليك أبا عبد الإله صنعتها لزومية فيها لسريّ إفشـــــاء
مبرّأة مما يعيب لزومها إذ عاب إكفاء سواها وإيطاء[82]

الحنين: وقد اشتهر ابن خميس بموضوع الحنين، وهو ما ينم على أنه لم يخرج من تلمسان إلا مضطرا، ولسان حاله حديث رسولنا الكريم حين ذكر مكة "لولا قومك ما خرجت" وهذا ما جعله يحنّ بشوق وبحزن مما جعله يتفوق في هذا الغرض، الذي يتحول أحيانا إلى رثاء

تلمسان لو أنّ الزمان بها يسخـو منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ
وداري بها الأولى التي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ
وعهدي بها والعمر في عنفوانـه وماء شبابي لا أجين ولا مطـــــخ
قرارة تهيام ومغنى صبابـــــة ومعهـــد أنس لا يلـــذّ لطـــخ[83]

وله أيضا:

فمن يك سكرانا من الوجد مرّة فإني من طول دهري لملتخ
ومن يقتدح زندا لموقد جدوة فزند اشتياقي لا عفار ولا مزخ[84]

الطبيعة: لا تغيب الطبيعة من شعر ابن خميس كله، فهو يوظفها في كل القصائد، فقد كانت الطبيعة ملهمته، لقد نشأ وترعرع في تلمسان الخلابة وقد صادفت نفسية الشاعر الرومنسية ففتح لها قلبه ومكنها من ذكره لها ،

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء فعند صباها من تلمسان أنباء[85]

كما أن ابن خميس لا يكتفي بذكر الطبيعة المحيطة بالمدينة، بل بما حواه الكون من فلك ونجوم كانت حاضرة إضافة إلى كل أنواع ما تضمنته الطبيعة حسب المقام البلاغي المستدعي لطبيعة الانفعال أو المشهد.

---

[81]- المنتخب النفيس، ص 84..
[82]- المصدر نفسه، ص 66..
[83]- المصدر نفسه، ص 95.
[84]- المصدر نفسه، ص 96.
[85]- المصدر نفسه، ص 62.

نظرت إليك بمثل عيني جؤذر وتبسمت عن مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدار أو كالبرق أو كالطلع أو الأقحوان مؤشر[86]

الزهد: إن ما يميز شعر ابن خميس هو التواضع والرضى والقناعة، لقد تطابق فيه الرجل مع الشاعر، فكان ما ينبع من قول له أصل في النفس، وقد جاءت قصائده دالة على هذا الادعاء وحملت التجرد من الدنيا ودل السؤال، تعلو النفس بهمتها، راضية بما قسم الله لها ....

كن حلس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائما حسنا

وإن ظلمت فلا تحقد على أحد إن الظغائن فاعلم تنشء الفتنا[87]

وكان له من الحال ما أنصف لنفسه من الدنيا فلم يرها شيئا ذا بال، بل الازدراء والصد عنها، وما حقيقتها إلى سراب وغرر.

لكنّها الدنيا تكرّ على الفتى وإن كان منها في أعزّ نصاب

وعادتها أن لا توسط عندها فإن سماء أو تخوم تراب

فلا ترجُ من دنياك ودّا وإن يكن فما هو إلا مثل ظلّ سحاب[88]

---

[86]- نفسه، ص 89.

[87]- تلمسان عبر العصور، ص 96

[88]-نفح الطيب، ج 7، ص 287.

المحاضرة السابعة:

العهد الزياني
(2)
ابن مرزوق الخطيب
(711 هـ - 781هـ)

1. عصر ابن مرزوق الخطيب

1. 1. السياسي.

لا شك أن ابن مرزوق عاش في فترة حرجة من تاريخ تلمسان، فقد ولد ولا تزال آثار الحصار المريني الذي تعرضت له تلمسان والذي دام أكثر من ثماني سنوات، ذاق فيها التلمسانيون أصعب الظروف الاقتصادية والاجتماعية. ولد في زمن السلطان أبي حمو الأول الذي تولى عرش الزيانيين عام 706هـ ليعيد لتلمسان هيبتها بشجاعته وهيبته، وكانت الهدنة تامة بين الدولتين (الزيانية والمرينية)، بيد أن سنة 718هـ أسفرت عن انقلاب في الحكم حيث اغتال أبو تاشفين أباه السلطان أبا حمو واستولى على العرش، وأهم ما قام به هو الحملات المتتابعة ضد الحفصيين يهمّه أمر بجابة وما جاورها[89].

لم يدم السلم بين الغريمين طويلا حتى تجدد الصراع بين الزيانيين والمرينيين، فبعد وفاة السلطان المريني أبي سعيد سنة 731هـ وخلفه ابنه أبو الحسن (731هـ- 749هـ)، شهدت المنطقة الحراك والمناورة، في محاولة نجدة المستغيث الحفصي أبي يحي، وتحرير بجاية من بني زيان 732هـ[90]، وفي سنة 735هـ عاود الحصار على تلمسان لإخضاعها استمر سنتين نتج عنها مقتل السلطان أبي تاشفين وهو يقاوم في رد العدوان.

لقد سيطر أبو الحسن على المنطقة وأفرغ تلمسان من سلطانها، منذ سنة 737هـ، فقد حل بها، وشيّد وعمّر، وأرغم من التلمسانيين رهطا صاروا جنودا تحت لواء سلطانه، واتبعه بعض العلماء والمشايخ فصار لهم وليا للأمر، حتى إذا حل الصراع المريني يهدد حصونه من الداخل، وانكسرت شوكة أبي الحسن بعد المغامرات الكثيرة التي خاضها طمعا في شهوة التوسّع، فإن التلمسانيين من أمراء وفرسان الذين كانوا آنذاك في جيش أبي الحسن قد تفطنوا لهذا الأمر وحزموا أمرهم للالتفاف حول أميرين من بينهم، هما: أبو سعيد بن عبد الرحمن ويحي ابن يغمراسن، وأخوه ثابت، منعزلين عن بلاد إفريقيا[91] عائدين إلى عاصمتهم

---

[89]-يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ش و ن ت، الجزائر، 1980، ص 135.

[90]- ينظر عبد الحميد حاجيات، أبو حمو أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، ش و ن ت، الجزائر، 1974، ص 19.

[91]- نفسه، ص 24- 25.

لإعادة إقامتها من جديد. خاصة وأن أبا عنان المتمرد عن أبيه كان لصالح أبي ثابت والذي من خلاله أراد أبو الحسن المريني محاولا فقط استرجاع عرشه الضائع والذي انقض عليه ابنه أبو عنان المتمرد، نهائيا سنة 751هـ، الذي تنازل عن العرش مقابل مبلغ من المال[92].

لم يدم السلم وتبعية الزيانيون للمرينيين طويلا، وبدأت الخلافات تدبّ، بعد التوسع الذي عرفته دولة بني زيان، وبعد عدم احترامهم لشفاعة أبي عنان، وبعد الخلاف والمناورة زحف أبو عنان على تلمسان 753هـ. وبعد المعارك القوية والضروس بين الطرفين تمكن التغلب على الأمرين الزيانيين وملاحقتهم، حتى تمكّن من القبض عليهم أو بالأحرى تسلّمهم من الأمير أبي يحي الحفصي، "فأمر بقتل أبي ثابت ووزيره (يحي بن داود)، وسجن أبا زيان"[93] لكن وعلى الرغم من إخضاع أبو عنان لتلمسان، وتمكنه من السيطرة على المنطقة، إلا أن الخطر وعدم الاطمئنان سوف يأتيه من الجنوب حيث القبائل المستعصية على الانقياد خاصة وأن طمعه بلغ احتلال افريقية ومحاولة ضم الحفصيين إليه، وهو الأمر الذي جعل جيشه يملّ ويرهق ويتمرد على مواصلة الحرب، وقد تزامن ذلك مع مرض أبي عنان وموته على إثر هذا المرض.

1. 2. الثقافي

عرفت تلمسان تحولا نوعيا خلال حكم أبي حمو الأول ثم ازداد تطورا في فترة حكم ابنه أبي تاشفين، حيث عرفت الدولة العبد وادية ازدهارا منقطع النظير "فنشطت فيها الفنون والصناعات، واتسع العمران، وأحرز المغرب الأوسط على تقدم حضاري كبير، ذلك أن أبا تاشفين كان شديد الميل إلى الفنون والبناء، وكثير الاقبال على الملذات واللهو، مما جعله ينصرف إلى التشييد والتنميق"[94].

2. الجانب الشخصي في حياة ابن مرزوق الخطيب

2. 1. مولده ونسبه

هو شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن مرزوق العجيسي (نسبة إلى قبيلة عجيسة وهي بطن من بطون بربر البرانس) التلمساني حيث استقر أجداده وانتسبوا إليها).

ولد ابن مرزوق بتلمسان عام 711هـ، (وسنأتي على حصر هذا التاريخ في مبحث لاحق من البحث).

ويعود أصل أفراد عائلته إلى القيروان، هاجر مرزوق (وهو جد المرازقة) ونفر من العائلة إلى تلمسان ومنهم وأخويه في زمن المرابطين الأول في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، معوّلا على الإقامة حيث

---

[92]- أبو حمو أبو حمو موسى الثاني، ص 27- 28.

[93]- نفسه، ص 32.

[94]- نفسه، ص 17- 18.

أعجبه هذا المثوى الحافل بكل الأسباب المساعدة على الحياة الكريمة فبنى بها دارا (بموضع يسمى مرسى الطلبة)[95] وشمّر على ساعديه ليشتغل في الفلاحة.

2. 2. نشأته وطلبه للعلم

كان بيت المرازقة يعد من أهم البيوت العلمية في تلمسان، فقد ورث أفراد هذه الأسرة العلم والتقوى أبا عن جدّ، ولا أدل على ذلك من كتاب "المناقب المرزوقية" الذي ألفه الخطيب، وما ورد فيه من مآثر هذه العائلة من دين وعلم وكرامات.. ففي هذا البيت ولد الخطيب ونشأ على حصير العلم حافظا للقرآن الكريم في الصغر، ومتتلمذا على أفضل شيوخ تلمسان العامرة التس كانت تعجّ بالعلماء والأولياء، يقول في ذلك ابن مرزوق: "رأيت من الأولياء في صغري بتلمسان خلائق"[96]. وهي المرحلة الأولى في التحصيل العلمي والتلقين الأولي للحياة.

2. 2. 1. رحلة العلم الأولى

بدأت رحلة العلم عند ابن مرزوق، عام 724 هـ، ضمن فوج من الفقهاء قاصدين كل من بجاية وقسنطينة والزاب، أما بجاية فكانت مركزا عظيما من مراكز العلم، وكان بها آنذاك الولي العالم ناصر الدين المشدالي، وأبو موسى المشدالي الذي أخذ عنه فقه الإمام مالك97 .. وطاف بتونس وأخذ عن علمائها وبطرابلس98 الغرب مثلها، ثم الاسكندرية فالقاهرة وبها مكث بعض الوقت مستأنسا بعلمائها ولقي فيها قاضي القضاة ابن جماعة[99].

وبعد مصر كانت وجهة ابن مرزوق رفقة أبيه إلى مكة لتأدية فريضة الحج، ولم يكن الحج في ذلك الوقت مناسك فقط، ولكن للعلم حظ أوفر، فمكث سنة كاملة بمكة ثم غادرها باتجاه المدينة المنورة، ومنها إلى بيت المقدس...

إن هذه الرحلة التي كانت بمثابة الرواء الذي كسح الأرض العطشى فجعلها تنهض على خصوبة أكبر، فكان فيها التحصيل العلمي والتثاقف بين ثقافة المغرب والمشرق، والمكاشفة والتحقق من العلماء مختلفي المشارب والمذاهب، قد أكسبه نضجا معرفيا أهّله إلى الشهرة والمصير الذي تحقق له في حياته كخطيب، وكرفيق للسلطان أبي الحسن المريني.

---

[95]-ينظر محمد بن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تح. سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2008، ص147.

[96]- نفسه، ص300.

[97]- المقري، نفح الطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2004، ج 5، ص396.

[98]- نفسه، ج 5، ص395.

[99]- المناقب المرزوقية، ، ص 304.

لقد كانت همّة العلم عند ابن مرزوق عالية، وشغف به بالغ، حتى أن من شدة هذا الشغف جعل بعضهم يقدّر عدد شيوخه في نحو ألفي شيخ[100] وما أورده ابن مرزوق في كتابه الذي يتبين من عنوانه: "عجالة المستوفى المستجاز في ذكر من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز".

2. 2. 2. رحلة العلم الثانية

عاد ابن مرزوق إلى بلده عام 729 هـ محملا بغنينة علمية وثقافية هائلة، وأقام بتلمسان خمس سنوات، ثم عاد من جديد في رحلة إلى الحجاز عام 734 هـ، وقد مكث خلال هذه الرحلة سنتان في مصر، ثم عاد إلى تلمسان، عام 737 هـ، وكان قد حلّ بها أبو الحسن المريني محتلاّ، وخلالها اعتلى منبر مسجد العباد خطيبا. حيث عينه أبو الحسن في هذا المنصب بعد وفاة عمه (ابن مرزوق) الذي كان يشغله، فسمع أبو الحسن لخطب ابن مرزوق "يخطب على المنبر، ويشيد بذكره، والثناء عليه، فحلي بعينه واختصه وقربه"[101]

2. 2. 3. الرحلة إلى فاس

في عام 750 هـ رحل ابن مرزوق عن تلمسان، فنزل بأرض الأندلس عند سلطان غرناطة أبي الحجاج، الذي أوكل إليه الخطابة في مسجد غرناطة، ثم غادرها إلى مالقة فكان كذلك خطيب مسجدها، ومنها استدعاه السلطان أبي عنان خليفة أبي الحسن الذي عاد إليه السلطان بعد وفاة أبيه، فكانت فاس[102] مقصد ابن مرزوق عام 754 هـ[103] ، فكم كانت تلك الاقامة مستحسنة بالنسبة لابن مرزوق، وقد كان فيها من المستشارين المقربين في قصر السلطان المريني، لو كان أن جوّها قد عكرته السياسة، في خضم الصراع بين أمراء بني مرين، فتعرض ابن مرزوق إلى السجن، إلى أن أطلق سراحه سنة 764هـ.

2. 2. 4. الهجرة إلى مصر

وبعد خروج ابن مرزوق من السجن سنة 764هـ غادر فاس إلى تونس حيث تولى الخطابة والتدريس فيقول: "ووليت خطابة جامع ملكها، والتدريس بأم مدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشماعين، كل ذلك تحت رعاية وملازمة لمجلس ملكها"[104] حتى عام 772 هـ، ثم غادرها إلى مصر، وفي القاهرة علا شأنه، حيث أنزله أهلها أرفع المنازل. وولاه سلطانها الأشرف الوظائف العلمية ورشحه لمنصب القضاء، وعينه في هيئة التدريس بأشهر مدارسها..

---

[100]- ينظر ابن فرحون المالكي، الديباج المهذب، في معرفة أعيان علماء المذهب، تح محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، 1981،ج2 ، ص 229.

[101]- بغية الرواد، ص 61.

[102]- المناقب المرزوقية، ص 304.

[103]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج3، ص77.

[104]- بغية الرواد، ص 61.

2. 3. لقب الخطيب

لقب ابن مرزوق بالخطيب لأنه اشتهر بكثرة ما خطب بمساجد وجوامع الارض الإسلامية مشرقا ومغربا وأندلسا، وقد شهد على نفسه عندما قال: "لقت ارتقيت خمسينا منبرا من حواضر الاسلام"[105] فقد كان ابن مرزوق أمير المنابر وسلطان الخطابة في عصره، مفوها بليغا، ذا حجة ومؤثرا.

2. 4. مع أبي الحسن المريني

منذ يوم اعتلى ابن مرزوق منبر مسجد العباد بعد عودته من رحلته المشرقية، وما كان في الخطبة من مدح للسلطان أبي الحسن، آثره هذا الأخير وقربه إليه من مجلسه وأصبح من خاصته، خطيبا ومدرسا ومستشارا، وإذا اقتضى الحال فسفيرا، شارك معه في معاركه ".. شهدت واقعة طريف في خدمة السلطان المرحوم أبي الحسن رحمة الله عليه، وباستدعائه ثم عدت إلى تلمسان، فأقمت فيها أشهرا فاستدعاني أيضا رحمة الله عليه لخدمته، فأقمت في خدمته أتولى الخطابة، والنظر في الشكايات في أوقات، ألازم مجلسه وحضرته، وعاملني بما يثيبه الله عليه في الآخرة"[106]. ومن علامة تقدير السلطان لابن مرزوق، فقد كلفه بمهمة سفارية، للتفاوض مع القشتاليين، من أجل إبرام معاهدة الصلح، والتوسط لديهم للإفراج عن الأمير تاشفين ابن السلطان أبي الحسن، الذي أُسِر في موقعة طريف.. وخلال هذه المهمة وأثناء عودته بلغه نبأ هزيمة أبي الحسن في معركته في القيروان سنة 749هـ[107]، فعاد إلى فاس ولم يلتحق به حيث مكان المعارك.

وبقي هذا التقدير من سلاطين بني مرين لشخص ابن مرزوق، فبعد وفاة أبي الحسن لم يستغن خليفته أبي عنان عن خدمة ابن مرزوق، بالرغم ما كان بين السلطانين من تنافر، حيث استدعاه بعد استرجاعه تلمسان، وأغرب ما وقع له في أثناء ملازمته له، أن بعثه رسولا إلى السلطان الحفصي أبي يحي من أجل خطبة بنته، لم يتم الأمر بسبب رفض الفتاة هذه الخطبة، وقد وشى الوشاة أن السبب الحقيقي يعود إلى أن ابن مرزوق هو الذي تقاعس وقصّر، فغضب أبو عنان وسجن ابن مرزوق ستة أشهر[108].

2. 5. آل ابن مرزوق (المرازقة)

تميز آل المرازقة بالتقوى والتصوف العلم، وقد اشتهر منهم محمد بن محمد بن مرزوق 629-681 هـ، وكان فقيها ومحدثا، متصوفا وزاهدا، وقد لزم مدينة تلمسان إلى أن توفي ودفن بها، ومنهم ابنه أبو العباس

---

[105]- المناقب المرزوقية، نفسه، ص 139.

[106]- محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، دراسة وتح ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد الشركة الوطنية الجزائرية ، 1981، ص92.

[107]- المناقب المرزوقية، نفسه، ص 305- 306.

[108]- ينظر نوال بلمدني، ابن مرزوق الخطيب وكتاب المناقب المرزوقية، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد (3 -4)، خريف 1432هـ- 2011/ شتاء 1433هـ- 2012م، ص92.

أحمد والد (صاحب الترجمة) ولد في تلمسان في 681 هـ، وتوفي بمكة في سنة 741 هـ، وهو من أولياء تلمسان وزهادها، وقد كان بعيدا عن السياسة، وله اليد الطولى في تربية وتكوين ابنه شهاب الدين.

ومن الأسماء ذائعة الصيت، محمد بن أحمد بن الخطيب شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن (766هـ - 842 /هـ) المعروف بابن مرزوق الحفيد، وهو حفيد الخطيب، عالم حجة فقيه على المذهب المالكي، عالم بأصول الفقه والنحو واللغة، بارع في الخطابة ونظم الشعر.

3. آثاره

ترك ابن مرزوق الخطيب، ذخيرة هامة تشهد على عصر حافل بالأحداث، وقد تعددت فنونها الابداعية واختلفت فروعها العلمية. ومن أهمها:

- برح الخفا في شرح الشفا في التعريف بحقوق المصطفى.
- عجالة المستوفى المستجاز في ذكر من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز .
- المتجر الربيع والمسعى الرجيح (شرح الجامع الصحيح للبخاري).
- إيضاح السالك على ألفية بن مالك.
- تيسير المرام في شرح زبدة الأحكام.
- المسند الصحيح الحسن في ذكر مآثر مولانا أبو الحسن.
- المناقب المرزوقية
- إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب
- جنى الجنتين في شرف الليلتين

4. نموذج من رحلة ابن مرزوق الخطيب

يرجّح أن ابن مرزوق ترك مصنفا لرحلة تامة[109] في كتابه (عجالة المستوفى) الذي لا يزال في حكم الضياع، ذلك الافتراض يعزّزه ما نقله المقرّي من تفاصيل بعض من رحلات ابن مرزوق في كتابه نفح الطيب، كما يتضمن كتابه "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن" بعضَ نصوص من رحلته.

وكانت رحلة ابن مرزوق باتجاه الحجاز صحبة والده، إذ يقول: **"واقتضى نظر مولانا الوالد رحمه الله الانفراد، وبعثني للوطن في قصة يطول ذكرها ولمعاذير أبداها ومعوله منها على ما صرح أبي عند وداعي له اتجاه قبر رسول ﷺ** "[110] وقد تبيّن أن ابن مرزوق لم يذكر يوم خروجه نحو طريق الحج ولكنه يذكر زمن العودة حين "خرج من الحجاز متجها إلى المغرب فمرّ في طريقه بالشام، ثم اتجه صوب الديار المصرية"[111] ثم

---

[109]- ينظر أدب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، رسالة ماجستير، عزوزي عبد الصمد، إشراف د. محمد زمري، جامعة تلمسان، 2003، ص38.

[110]- المسند الصحيح الحسن، ص480.

[111]- ينظر أدب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، مرجع سابق، ص39.

طرابلس وتونس ثم وصوله إلى تلمسان: **"فوصلت إلى تلمسان في السابع عشر من شهر رمضان، فدخلت لمولانا رضي الله عنه في برج الكيس"**[112] وكان عند خروجه من الحجاز قد تسلّح بنصائح والده وتوجيهه، وكانت إشارات منه على خدمة أبي الحسن المريني، وهو الذي كان عند عودته إلى تلمسان وحتى في فاس لما ضاق به الحال بتلمسان من جهة، ومن جهة أخرى لِما وقع في نفس أبي الحسن من استحسان لأمر ابن مرزوق، إلى حدّ تقريبه منه في القصر وجعله مفاوضا له في أموره العالقة بينه وبين ملوك الأندلس.

كما كانت توجيهات والده أن نصحه بزيارة العلماء والأولياء بالقاهرة والإسكندرية، ومن بينهم الشيخ قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، ومن وصيته ما يأتي: **"يا بني إذا عدت إلى القاهرة فاعمل على لقاء الشيخ، وقصد زيارته والاستفادة منه، والوقوف عند إشارته كيف كانت بالاستمرار على الوجهة أو غيرها"**[113]. إضافة إلى ذلك فقد كان يختلف إلى جملة من شيوخ القاهرة. ثم ودّع القاهرة باتجاه الإسكندرية مُبحرا في مركب، ومما يرويه ابن مرزوق من حدث وقع له بالمركب ليلا هو ما ينمّ عن شخصيته الإيمانية، فقد روى أنه قد حاوره شخص بالمركب، وشكّكه في شيخه المقصود بالزيارة حتى همّ بالاستسلام له، فقال: **"وكنت في كيب من أصحابنا () أقلعنا ليلا، فنام أصحابي ومنعني خوف ركوب البحر النوم، فرأيت إلى جانبي رجلا عليه زيّ الطلبة فسألني عن الحال سؤال متعرف النسب والحيلة والوجه، فأعلمته، ولما أخبرته بقصد الزيارة للشيخ قابلني بالإنكار وقال لي: "مثلك ممن حصل من طلب العلم ما حصلته يعمل الرحلة وشد المطي لغير ما يشد المطي له"، فدار بيني وبينه بحث طويل"**[114]وهذا الذي ذكره ابن مرزوق كان بمثابة الوزر الذي عوقب من أجله فوَقَع له ولطاقم المركب حادث الغرق، ويُرجع ابن مرزوق ذلك إلى سماعه لما كان بينه وبين رفيقه من حديث، ومن ثم أعلن التوبة واستقامت نيته نحو شيخه وحسنت، وكان هذا سببا آخر في نجاته من الغرق حسب قوله: **"فوقع في الحال في خاطري أني أصبت بسبب تردّدي فيما توجهت بسببه، ونويت التوبة، فسقطت على خشب يجمعونها ويربطونها بالأجفان يجلبونها إلى القاهرة كذلك، فجلست عليها فنادى بعض أهل المركب [بعضهم] بعضا "هذا غريق"، فاحتملوني وصعدوا بي إلى مركبهم"**[115]وهذا يدل على ما في شخص ابن مرزوق الذي يسلّم بالغيبيات، ويضيف أنه عندما نجا وبحث عن مُناظره لم يجد له أي أثر **"وطلبنا الرجل الذي ناظرني، فو الله ما وقعنا له على خبر، ولا في المركب من رأى صفته، فعلمت أنه شيطان"**[116]، وقد استمر في الرحلة حتى وصل تلمسان كما ذكرنا.

---

[112]-المسند الصحيح، مصدر سابق، ص481.

[113]- نفسه، ص481.

[114]- نفسه، ص484.

[115]- نفسه، ص484.

[116]- نفسه، ص484.

ولعل ابن مرزوق لم يكن صاحب رحلة مغلقة فيها ذهاب وإياب، وإنما رحلته مفتوحة، قد كان خلالها مشرّقا ومغرّبا، ناقلا لأخباره وأخبار العلماء والشيوخ، كما كان ناقلا لأخبار البلدان والسلاطين، ولم تكن رحلته مقيّدة بدافع واحد وإنما تتعدّد بحسب ما كان له من حظوة اجتماعية، ومن ذلك ما كان له من أمر خدمته للسلطان المريني أبي الحسن، الذي قرّبه منه وخدَمه خِدْمة جليلة، إذ أن أبا الحسن كان يثق فيه كثيرا ويعترف له بالعلم والفضل، فقد بلغ به الأمر أن جعله مفاوضا له عند ملوك الأندلس.

وقد كان ابن مرزوق ذوّاقا للرؤى والمشاهد فكان لا يدع الوصف الدقيق والبليغ في رسم مشاهده التي كانت تحدث أمام مَرآه، خصوصا المنشآت التي كانت أكثر إثارة بالنسبة له والمساجد على وجه الخصوص، كمسجد أبي مدين شعيب الذي بناه السلطان أبي الحسن، وقد وجده حين وصوله تلمسان –بعد عودته من الحجاز– على وشك التمام، والوصف ثابت في قوله: **"وأما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ، وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفين أبي مدين شعيب بن الحسين، رضي الله عنه، فهو الذي عزّ مثاله واتصفت بالحسن والوثاقة أشكاله، وأنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما، وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي. الذي اشتمل على الوضع الغريب، وهو أن سقفه كلها أشكالا منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعترض لها وهم، إنها أشكال منجورة، منقوشة، وهي كلها مبنية إحكام بالآجر والفضة واشتمل على المنبر العجيب الشكل، المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب"**[117]وهذا ما يخلّد صورة تذكارية عن مسجد أبي مدين منذ يوم إنجازه.

كما نستفيد مما جاء من وصف ابن مرزوق للمنشآت، تلميحا للإنجازات التي كانت تسند للسلطان أبي الحسن المريني، إذ لا يخلو ذكر موصوف إلى إشارة للسلطان والتعظيم من أمره كما نجده في قوله عندما وصف الأبراج التي بناها بمدينة سبتة: **"ومن أعجب ما أنشأه من هذا النمط رضي الله عنه، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشأ، لا يتصور بناؤها على الوجه الذي قدّره وأورده، فجاءت على أتم الوجوه من الإحسان، فمنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبتة وقد حضرت إنشاءه، وكان قد اجتمع الملأ على عدم إمكان بنائه هنالك، فنقلت الصخور التي هي كالروابي والأحجار التي لا يتزحزح مثلها إلا بهندسة وأحكام وعجل"**[118]وإضافة إلى ذلك لم يدع ابن مرزوق قلمه جانبا في إبراز المظاهر التي كان يعجّ بها قصر السلطان من عادات المولد النبوي باحتفالاتها المتميزة، بل شارك في ملأ الفراغ من هذه الناحية وذكر أوصافا لهذه الاحتفالات التي كانت سلاطين المغرب العربي كلها تهتم بها اهتماما بالغا ومن ذلك قوله: **"ومن العادة أن**

---

[117]– نفسه، ص403/404.

[118]– نفسه، ص398.

يستعد لها بأنواع المطاعم والحلويات وأنواع الطيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس. فإذا صلينا المغرب، ركع ركعات، ثم قصد مجلسه الحافل، فاستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم، ويأمر بأخذ المجالس على طبقاتهم على أحسن وأجمل شارة، فإذا فرغ الترتيب وأخذ الناس مجالسهم، دعي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام"[119] ويسترسل في وصف الكيفية التي يتم بها الإطعام ومجمل المأكولات من فواكه وحلويات وغيرها من أنواع الأطعمة، وبعدها يتحدث عن الاحتفال الروحي الذي يتغذى به المجلس من خلال تلاوة القصائد النبوية **"فتطير القلوب فرحا، وتسرد المعجزات وتكثر الصلوات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب وبركاتها على هذا القبيل ظاهرة، والخيرات لا تزال بسبب الاعتناء بها عليهم متظافرة متكاثرة"**[120] ويستمر الحفل في زينة وابتهاج من أثر الشموع والبخور، ويدوم الحفل سبعة أيام **"ثم في ليلة السابع مثل ذلك سواء، فإذا كان صبح يوم السابع، جلس الكتاب للعطاء للشرفاء والكبار من الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين، فيعطي كل على قدره كسوة تخصه، وإحسانا لبعضهم، ولم تزل هذه السيرة، والحمد لله"**[121]، وتعدّ رحلات ابن مرزوق من النصوص التي لا تخلو من قيمة أدبية وتاريخية، فهي بمثابة المصدر الذي يجد فيه الباحث مادته في ذلك العصر، خصوصا وأن ابن مرزوق فقيه وثقة في رواية الأحداث، إلى جانب أسلوبه الأدبي الذي يرقى به إلى مصف الأدباء المتمكنين.

[119]- نفسه، ص 153.

[120]- نفسه، ص 154.

[121]- نفسه، ص 154.

المحاضرة الثامنة:

العهد الزياني

(3)

أبو حمو موسى الثاني

1. عصر أبي حمو

1. 1. السياسي

تعرضت تلمسان العاصمة الزيانية، ومركز الحكم فيها إلى الحصار المقيت الذي فرضه المرينيون والذي دام أكثر من ثمان سنوات، وانتهى سنة 706 هـ بعد عدم استسلام أهل تلمسان للانصياع وتسليم المدينة، وبموت السلطان المريني أبو يوسف يعقوب (706هـ)، وكان ذلك في زمن السلطانين أبو سعيد عثمان (ت 703هـ)، وابنه بعده السلطان أبي زيان الأول، وبعد وفاة هذا الأخير بُويع أخوه السلطان أبو حمو الأول عام 707 هـ، الذي تميز عن أخيه بالصرامة والعزم[122] وفي عهده أبرم الصلح مع المرينيين اتقاء لأي شرّ خاصة وأن دولته خرجت من حصار قضى كثيرا على بنية الدولة اقتصاديا وعسكريا، وهي التي تتمركز بين أنياب الحفصيين من جهة والمرينيين من الأخرى، وهي فرصة لإعادة العهد بالتشييد العمراني وتمديد النفوذ خاصة من الجهة الشرقية[123] والقيام باستراتيجية حربية لاستعادة أملاك دولته. وكان في المقابل من الجهة الغربية قد استلم عرش المرينيين السلطان أبي سعيد عثمان (710هـ - 731هـ) فلم يسجّل في فترة حكمه صدام بين الجانبين وفي سنة 718 تعرض السلطان أبو حمو الأول للاغتيال من طرف ابنه أبي تاشفين[124] وبويع هذا الأخير سلطانا في السنة نفسها وأهم ما قام به هو الحملات المتتابعة ضد الحفصيين يهمّه أمر بجابة وما جاورها[125].

وفي سنة 731هـ شهدت المنطقة وفاة السلطان المريني أبي سعيد، ويخلفه ابنه أبو الحسن (731هـ-749هـ) وخلال حكمه عاد الصراع من جديد بين المرينيين والزيانيين، واستمر الحراك والمناورة وقد أدرك أبو الحسن نجدة الحفصيين وتحرير بجاية من بني زيان 732هـ، بعد ان استغاثه السلطان الحفصي أبي يحي[126]، وفي سنة 735هـ عاود الحصار على تلمسان لإخضاعها استمر سنتين نتج عنها مقتل السلطان أبي تاشفين

---

[122]-عبد العزيز فيلالي، تلمسان في عهد الزيانيين، ج1، ص 40.

[123]-يحي بوعزيز، ص 62.

[124]-بغية الرواد، ص 131.

[125]-نفسه، ص 135.

[126]- أبو حمو أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، ص 19.

وهو يقاوم في رد العدوان. وما يسجل لصالح أبي تاشفين في فترة حكمه، هو ما عرفته الدولة العبد وادية من ازدهار منقطع النظير "فنشطت فيها الفنون والصناعات، واتسع العمران، وأحرز المغرب الأوسط على تقدم حضاري كبير، ذلك أن أبا تاشفين كان شديد الميل إلى الفنون والبناء، وكثير الاقبال على الملذات واللهو، مما جعله ينصرف إلى التشييد والتنميق"[127]

وفي ظل الصراع المريني الداخلي وانكسار شوكة أبي الحسن بعد المغامرات الكثيرة التي خاضها طمعا في شهوة التوسّع، فإن التلمسانيين من أمراء وفرسان الذين كانوا آنذاك في جيش أبي الحسن قد تفطنوا لهذا الأمر وحزموا أمرهم للالتفاف حول أميرين من بينهم، هما أبو سعيد بن عبد الرحمن ويحي ابن يغمراسن، وأخوه ثابت، منعزلين عن بلاد إفريقيا[128] عائدين إلى عاصمتهم لإعادة إقامتها من جديد. خاصة وأن أبا عنان المتمرد عن أبيه كان لصالح أبي ثابت والذي من خلاله أراد أبو الحسن المريني محاولا فقط استرجاع عرشه الضائع والذي انقض عليه ابنه المتمرد أبو عنان نهائيا سنة 751هـ، لذي تنازل عن العرش مقابل مبلغ من المال[129].

لم يدم السلم وتبعية الزيانيون للمرينيين وطويلا، وبدأت الخلافات تدب، بعد التوسع الذي عرفته دولة بني زيان، وبعد عدم احترامهم لشفاعة أبي عنان، وبعد الخلاف والمناورة زحف أبو عنان على تلمسان 753هـ وبعد المعارك القوية والضروس بين الطرفين تمكن التغلب على الأمرين الزيانيين وملاحقتهم، حتى تمكن من القبض عليهم أو بالأحرى تسلّمهم من الأمير أبي يحي الحفصي، "فأمر بقتل أبي ثابت ووزيره (يحي بن داود)، وسجن أبا زيان"[130] لكن وعلى الرغم من إخضاع أبو عنان لتلمسان، وتمكنه من السيطرة على المنطقة، إلا أن الخطر وعدم الاطمئنان سوف يأتيه من الجنوب حيث القبائل المستعصية على الانقياد خاصة وأن طمعه بلغ احتلال افريقية ومحاولة ضم الحفصيين إليه، وهو الأمر الذي جعل جيشه يملّ ويرهق ويتمرد على مواصلة الحرب، وقد تزامن ذلك مع مرض أبي عنان وموته على إثر هذا المرض.

يقول عبد الحميد حاجيات "وكالنبأ وفاته أثر بليغ في سائر أقطار المغرب، ولا شك أن فرسان بني عبد الواد تلقوه بارتياح كبير، وأن أمل إحياء دولتهم من جديد أصبح يراودهم مرة أخرى، فكان من نصيب أبي حمو موسى الثاني تحقيق هذه الأمنية"[131]

2. التعريف بشخصية أبي حمو الثاني

أبو حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان..

2. 1. مولده ونشأته

---

[127]-نفسه، ص 17- 18.

[128]- نفسه، ص 24- 25.

[129]- نفسه، ص 27- 28.

[130]- نفسه، ص 32.

[131]-عبد العزيز فيلالي، تلمسان في عهد الزيانيين، ج1، ص 53.

ولد بغرناطة سنة 723 هـ حين كان أبوه يوسف أبو يعقوب منفيا إليها، ثم عاد به أبوه إلى تلمسان ونشأ بها مثل غيره من بناء الأمراء من ترف وحفلات[132] تلقى تعليمه الأساسي من قرآن وحديث شريف بتلمسان وبعد استيلاء المرينيون على بني عبد الواد سنة 737 هـ غادرت أسرته إلى فاس ولعل هذه الرحلة كان قهرا، ما يعني أنه عاش الاغتراب. ومع ذلك فإن فاس حينها كانت في أوج عطائها العلمي وخلالها تمكن أبو حمو من التحصيل العلمي والمعرفي، وانشغاله الأدبي، وفي عام 749هـ عاد إلى تلمسان، والظروف بها مزرية بسبب الاحتلال المريني، والصراع المريني الداخلي –أيضا– ليكون عونا فيما بعد لعميه أبي ثابت وسعيد، في المعركة الفاصلة بين ابي عنان والزيانيين في وادي شلف، وكان النصر حليف أبي عنان، ليفرّ هاربا أبو حمو رفقة عمه أبو ثابت إلى تونس ليحتمي بها هناك، ومن هناك تمكن من التوصل بالقبائل العربية المنزوية بالصحراء والتي كانت لها قوة وصلابة، فاستطاع أن يكون جيشا ليعد من خلاله مجد اجداده الزيانيين، وما شجعه على ذلك هو وفاة أبي عنان (السلطان المريني) سنة 759هـ، وهي الفرصة التي انصاعت له إضافة إلى التحضير لهذه المواجهة، فتم له ما أراد ، واستطاع أن يعيد لتمسان مجدها عام 760هـ

2. 2. أبو حمو سلطانا على الزيانيين

تولى أبو حمو الحكم عام 760 هـ، رغبة منه وطلبا من القبائل التي رأت فيه المثل الأعلى في القيادة والحق له كابن للأمراء، وكذلك لأجل الانتقام من المرينيين وملاحقتهم، وقد كان الحبور من أهل تلمسان لما أعاد لهم هذا الأمير مدينتهم، وقد امتد حكم أبي حمو نحو أكثر من ثلاثين عاما.

وقد استطاع أبو حمو خلال مرحلة حكمه أن يرسي قواعد دولة متينة أساسها العدل، ومبدؤها العلم، لتتحول تلمسان إلى مدينة الحضارة والثقافة والأدب والعمران، وتحتل مكانة السيادة بفضل جيشها القوي. وأصبحت تلمسان مقصد العلماء والتجار والطلبة، فالتحق به الأخوان ابن خلدون حتى أصبح يحي ابن خلدون مسؤولاً عن شؤون ديوان الملك حتى وفاته 780 هـ.

ولكن هذا لم يمنع المرينيون من التربص به وبدولته، ومحاولة مناورته من حين لآخر، حيث هاجمهم أعداؤه التقليديون وأرغموه على الخروج من تلمسان سنة 772هـ ، وبعد سنتين استطاع هو الآخر طردهم من تلمسان والتحكم في زمام دولته. وقد كان هذا الكرّ والفر منذ ذلك التاريخ بين الفريقين إلى أن ظهر عدوّ لم يكن في الحسبان، ذلك الذي كان من صلبه الأمير أبي تاشفين الذي عزم على صراع من أجل العرش ضد أبيه، فكانت المؤامرة بين أبي تاشفين والمرينيين بالتحالف ضد أبي حمو، فقتل الابن أباه، واستولى على العرش سنة 791. فكانت نهاية مؤسفة لأبي حمو الذي يعدّ أفضل سلطان حكم دولة بني عبد الواد.

3. إسهامات أبي حمو موسى الثاني في المجال الأدبي.

[132]– أبو حمو أبو حمو موسى الثاني، ص 72.

3. 1. أبو حمو الثاني والمولديات

لقد كان أبو حمو الثاني أصيلا في تفكيره وفي توجّهه، فقد أحكم أمور مملكته بالقوة والحكمة، فأراد لها أن تكون كذلك في الأخلاق، وفي المجال الأدبي ليكتمل منهجه في السياسة الحكيمة، وتحصين رعيته من الموجات النصرانية والتيارات الهدّامة، ومنع خطر الانحراف في العقيدة والمسخ الأخلاقي، فاتخذ من مناسبة الاحتفالات السنوية الخاصة بالمولد النبوي شعارا أدبيا مميزا تتخذه الدولة مناسبة دينية احتفالية يكون فيها تجديد الأمة في دمائها من خلال هدي رسول الله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهي المظاهر التي اتخذتها الدولة احتفالا رسميا يقول في ذلك التنسي: "وكان يقوم بحق الله ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المراسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وشمع كالأسطوانات وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملوّن، وبأيديهم مباخر ومرشات ينال منها كلّ بحظه .. والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ الجلوس فيه، وكل ذلك بمرأى ومسمع حتى يصلي هناك صلاة الصبح"[133].

ولقد كانت هذه الاحتفالات دينية محضة، لكنها بالمناسبة كونها تتعلق بالفرح والابتهاج والاعتزاز وإضافة إلى ذلك أن السلطان كان شاعرا وأديبا، فقد جعل المناسبة منافسة بين الشعراء أهل الفصاحة والابتكار في فن القول، فقد كان التباري بين الشعراء فأجادت قرائحهم بأروع ما كان ممكنا في وصف والتحدث عن خصال وهدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكانت هيئة الشاعر بما أورده التنسي في قوله: "فالمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم"[134]. وما يزيد في روعة الحدث أن أبا حمو كان هو أيضا من المداحين فقد زاوج بين المتلقي العارف المستمتع والقائل المفصح.

3. 2. أبو حمو الثاني شاعرا

لقد اجتهد الأستاذ عبد الحميد حاجيات، في جمع قصائد أبي حمو الثاني، وأوردها في ملحق كتابه "أبو حمو أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره" الصادر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع عام 1974. ومجموع قصائد أبي حمو واحد وعشرين قصيدة، في أغراض متنوعة تدور في غرض الفخر والحماسة والرثاء، والمولديات.

بنية القصيدة المولدية عند أبي حمو.

لقد أظهر أبو حمو براعة في نظم الشعر، حتى كان الشاعر الفارس.. ويعدّ كل ما جُمع له من أشعار، واحد وعشرين قصيدة، أغنت عن تفسير كنه أبي حمو الأدبي، وألقه الشعري، وروحه الجياشة بالعواطف.. وقد خاض أبو حمو بالأغراض الشعرية المختلفة، إلا أنه برع في غرض فريد ظهر يافعا في زمانه، ألا وهو

---

[133]- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، منشورات موفم للنشر، 2011، ص 162.

[134]- نفسه، ص 163.

شعر المولديات، ولم يكن أبو حمو شاعر المولديات فحسب، بل كان يحيي ليالي المولد النبوي الشريف، ويأمر أن تقام الاحتفالات في كافة تلمسان..

وما تميّز به أبو حمو في نظمه لشعر المولديات، أنه التزم تقليدا ساد في عصره وهو ما يتعلّق بشكل القصيدة، حيث يبدأ مطلعها باستهلال يوحي بالشوق، وهو المعدول به في القصيدة التقليدية التي تعتمد أساسا في مطلعها على الغزل والأطلال، فما كان من أبي حمو إلا الاستفتاح برسم طقوس المحبة كفرش قبل البدئ طقسا من طقوس الاستحضار للتحدث في شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وهو المنزه عن كل عيب..

وقد جاء مطلع القصيدة المولدية في هذا الشأن موحيا عن حب واشتياق، ملتمسا في ذلك الالتزام بقصائد الجاهليين في وقوفهم على الأطلال[135].

قفا خبراني عن رسوم النواهج وعن معلمات طيبات الأرائـج
وعن أرض نجد والعذب بارق ولا تخبراني عن ذوات المالح

وقد تنزعت مطالع قصائد المولديات لدى أبي حمو من الطلل إلى الغزل، فنراه في قصيدة أخرى وهو يرمي من وراء ذلك أبلغ ما يكون الحبيب في حالة الحب، لكن هذا الحب سوف يتحول في شأنه من المحبوبة إلى رمزية أخرى وهي حب النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نشعر أن هذا الحب تتمثل فيه الرمزية فحسب، بل هو حب واقعي يصدر من مؤمن بلغ به الاعتراف النبي صلى الله عليه وسلم، مخلص البشرية من التيه، فنجده يقول[136]:

الحب أضعف جسمي فوق ما وجبا والشوق ردّ خيالي بالسقام هبا

وفي أخرى يقول[137]:

حط العشاق ركائبهـــــم بين العلمين بالحـــــرم
وصروف الدهر تعارضنـي فما أبغيه من القســـــم
قلبي انفطر والدمع جرى والركب سرى نحو الخيم
قد قيدني ما قلدنـــــي من أمر حكيم ذي حكم

ثم بعد هذه المقدمة تصبح القصيدة متاحة للمتغيرات الوجدانية، لكنها تبقى دائما تصب في قالب واحد، وتسلسل خاص في ترتيب نظمها، فبعد الاستهلال المذكور، نجده ينتقل إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يعدد معجزاته، ثم الابتهال بهذه الليلة العظيمة المباركة، ثم الانقاص من الذات والاستشعار بالخطايا والذنوب والتقصير يعترف بذلك الشاعر أمام حضرة الممدوح صلى الله عليه وسلم..

---

[135]- أبو حمو أبو حمو موسى الثاني، ص 375.

[136]- نفسه، ص 371.

[137]-بغية الرواد، ص 109.

المحاضرة التاسعة:

العهد العثماني

(1)

أبو العباس أحمد المقري

(1041 –986هـ/ 1578– 1631م)

1. عصر المقري

- **السياسي**

عرفت تلمسان هزات عنيفة بعد سقوط غرناطة 1492م، بسبب لجوء الفارين من المسلمين وزحف الاسبان سعيا في ملاحقتهم ومحاولة اغتصاب الأراضي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الصراع الذي عرفته العائلة الزيانية الحاكمة، حيث انقلب أبو حمو الثالث على أبي زيان ، هذا الأمر الذي خلّف صراعا وفوضى في تلمسان عاصمة الحكم، ما جعل العثمانيين التدخل لصالح أبي زيان ضد أبي حمو الثالث المستعين حينها بالعدو الاسباني (تحالف الخائن)، وعادت الكفة لأبي زيان وانهزم صاغرا أبو حمو.. لكن العثمانيون لم يحققوا هذا النصر لصالح أبي زيان مجانا، وإنما ليبقى تحت وصايتهم، وهو ما لم يهضمه أبو زيان، وعندما أدرك العثمانيون أن أبا زيان يريد الاستقلال بالعرش والانفراد بالحكم، فقرر العثمانيون التخلص منه، وخلالها وقعت المعارك بين عروج قائد الجيش العثماني4 وأبي حمو الثالث بمعاونة الاسبان الذين كانوا يحكمون وهران، وتعرض خلالها عروج لكمين قتل خلاله في نواحي عين تموشنت وكان ذلك سنة 1518م.

وخلال هذه الفوضى كانت أعين السعديين حكام المغرب تراقب وتطمع في ضم تلمسان إلى ملكها، ولم تكن هذه مجرد نية، وإنما قد جهز الشريف محمد المهدي مؤسس الدولة السعدية بالمغرب الأقصى حملة بقيادة ابنه محمد الحران لفتح تلمسان والمغرب الأوسط سنة 1550م، وحاصرها مدة تسعة أشهر، وتمكن من دخولها وطرد العثمانيين ليمتد حدود حكمه إلى نواحي وادي شلف.

وبين كرّ وفرّ بين السعديين والعثمانيين استطاع حسن ابن خير الدين إلى دحرهم وإرجاعهم إلى حدودهم الأولى[138].

بعد هذا النصر خوّل للعثمانيين تنصيب الحسن عبد الله الثاني رمزيا، أما الحكم الفعلي فكان يؤول إلى الأتراك، وعندما حاول أهل تلمسان بتغيير هذا الأمر ومحاولة خلع السلطان الموضوع، قرر العثمانيون إنهاء حكم الزيانيين إلى الأبد وكان ذلك عام 1554م / 962هـ، ودخلت تلمسان تحت الحكم التركي بإيالة الجزائر.

[138]– محمد عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ،صص 233– 234.

- **الثقافي**

لا شك أن الركود العلمي والأدبي في زمن الأتراك بل حتى زمن المتأخر للزيانيين كان يعرف انحدارا في جميع مستوياته، لكن من حظ تلمسان أنها عرفت ظروفا أحسن مما عرفته المدن الجزائرية الأخرى، ويعود ذلك إلى أن خاصيتين اختصت بها تلمسا في تلك الفترة، أولها: البيوتات العلمية التي زاولت نشاطها العلمي والمعرفي باتة في أجيالها المتلاحقة أنفاس المعرفة، كعائلة المرازقة، والمقري، وو.. فبقيت المدينة محافظة على تلك المكانة من العلم، فلم تتأثر المؤسسات الثقافية في تأدية وظائفها. أما الخاصية الأخرى وتتمثل في الحركة الثقافية التي دفع بها العلماء النازحون من الأندلس واستقر بهم المقام في تلمسان.

فكثرة الزوايا والمساجد العتيقة في تلمسان إضافة إلى المسجد الكبير، فكانت لا تتوقف عن تحفيظ القرآن الكريم، وإقامة الدروس كنشاط ديني وتربوي، كما أن للأضرحة بها لها رمزية خاصة ومكتباتها الخاصة والعامة تضم كتبا لأبناء المدينة من العلماء الأعلام في شتى المجالات إلى جانب الكتب التي جلبها النازحون الأندلسيون[139] معهم.. كل ذلك أعطى للمدينة بعدا حضاريا وقاها من الاضمحلال والشحوب.

وقد تشرفت تلمسان في هذه الفترة بجملة من العلماء الذين كان لهم وزن معتبر في المجال العلمي منهم: أبو العباس أحمد بن محمد العقباني، ومحمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني (908هـ/981 (1573/1502م)، ومحمد بن شقرون التلمساني (1503-1575)(908-983) ، وأبو العباس أحمد بن يعقوب العبادي تلمسان: توفي (980هـ/1572م)، وأبو العباس أحمد بن يحي المقري (986هـ1041 هـ/1578-1631م، و ابن مريم الشريف المليتي المديوني، ومحمد بن عبد الكريم المجاوي: (توفي 1208هـ1267-هـ) ، ومحمد بن محمد عبد الرحمن التلمساني ت: 1193هـ/1779م).

2. أصل عائلة المقْري

يعود أصله العائلي إلى بلدة (مَقْرَة) التي تبعد عن المسيلة (المحمدية في زمن الحماديين) التي كانت عاصمة للدولة الحمادية ببلاد الزاب. انتقل جد (المقري المترجم له) الأعلى من (بلدة مقرة) إلى (تلمسان)، وقد لصار لهذه العائلة في تلمسان شأن كبير حين برز منها علماء أجلاء، على غرار جدّه وعمّه (سعيد المقْري)، فأصبحت هذه العائلة بيتا من بيوتات العلم في تلمسان.

3. مولد المقري

هو أبو العباس أحمد بن محمد المقري، لقبه شهاب الدين، ولد بتلمسان سنة 986هـ - 1578م.

4. طلبه للعلم

نشأ بمدينة تلمسان وطلب العلم فيها، وحفظ القرآن الكريم وعلوم الشريعة، ودرس على أمثال عمّه سعيد، ....

[139]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 ، ص 286.

5. رحلته إلى فاس لطلب العلم

كانت فاس في زمن المقري حاضرة علمية تهفو إليها الأنفس التواقة، بينما أصبحت تلمسان تبحث عن ذاتها بعد الذي حدث من اضطرابات سياسية وحروب مكّن للعثمانيين ضمّها إلى أيالتهم، فما كان من المقري سوى تحقيق اندفاعه وحماسه للاستزادة في طلب العلم، وتحقيق طموحه، ولم تكن فاس بالنسبة للتلمسانيين إلا رمي خطوة.. انتقل (المقري) سنة (1009هـ/1600م) إلى فاس من أجل هذا الغرض، وعُمْره يتجاوز 23 سنة، فقد كان ملمّا ومحققّا ذاته، لكن طموحه كان أكبر، ولم يمض طويلا حتى أصبح للمقري في فاس شأن حيث أبهر في ثقافته وفي معرفته العلمية، فلفت أنظار رجال السياسة والعلم معا، ولما أدرك شيخُه الشيخ إبراهيم بن محمد الآيسي منزلته العلمية، قدمه إلى السلطان (أحمد المنصور) بعاصمته مراكش فأعجب به السلطان وقرّبه إليه، لقد تقاربت الأرواح بين السلطان والمقري، وصار المقري يتنفس هذا الجو من تقدير السلطان له فوجد نفسه في ظروف لائقة وبيئة طموح مناسبة..

عاد المقري إلى تلمسان سنة (1011هـ/ 1601م)، بيد أنه لم يلبث في موطنه سوى سنتين ليعود مرة أخرى إلى فاس سنة (1013هـ/ 1604م)، مضطرا تدفعه جاذبية الشوق للعلم للمناخ الحضاري والثقافي الزاخر.

وقد كان له بفاس ما يريد حيث تصدر الإفتاء وانبسطت له الإمامة على مساجدها والخطابة على منابرها، فأصبح لا ينازع على مكانته المرموقة. بينما فاس التي عرفها المقري من قبل ليس هي فاس في عودته، إذ حصل بعد وفاة السلطان (أحمد المنصور) (1012هـ/ 1603م) صراع مرير بين أبنائه على السلطة، ففي هذا الجو المكهرب لم يختر المقري من بين المتاحات سوى الخروج من فاس قافلا إلى الحجاز وكان ذلك في رمضان (1027هـ/ 1618م)، ولعل كان في هذه الرحلة عزاءه فوقع على الحج.

6. رحلته إلى الحجاز

غادر المقري إلى الحجاز قاصدا الحج فوصل مكة المكرمة في ذي القعدة (1028هـ/ 1619م) فاعتمر، ثم حجّ، ثم قرّر الاقامة لو أن حالت دون ذلك عوائق، فاتخذ مصر بدلها مقرا.

7. إقامته بمصر

وصل المقري إلى مصر في شهر المحرم (1029هـ/ 1630م)، وفيها أعاد الزواج، من امرأة مصرية، ولما كانت له كفاءة علمية وشهرة، شرع في التدريس في الأزهر الشريف..

7. أعماله

ترك المقري عددا معتبرا من التآليف التي تعدّ مصدرا من مصادر التاريخ والأدب في زمن الزيانيين والأندلسيين، ومن أهمها:

7. 1. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

والعنوان كاملا: "نفح الطبيب من غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين بن الخطيب" وهو الكتاب الذي اشتهر به المقري، وكان خاتمة كتبه وأحسنها وأفيدها، وقد أنجزه بمصر حين إقامته بها سنة (1038هـ/ 1628م)، ولعل سبب تأليفه لكتاب نفح الطيب يعود إلى المدة التي مكثها بدمشق خلال رحلته الحجية عام 1038هـ حيث وجد صدى عند علمائها كلما حدثهم عن الأندلس وعن علمائها وخاصة منهم الوزير لسان الدين ابن الخطيب، فكان هذا الاهتمام من المشارقة بأدب المغاربة وشغفهم بثقافتهم، الأمر الذي جعل (ابن شاهين) يطلب من المقري أن ينجز مؤلفا يشمل هذا الحديث ويحتوي هذه الأخبار حتى يعمّ ذلك المتلقي الذي استحسن حديثه وتشوّق إلى معرفة المزيد من أخبار وثقافة أهل المغرب، ومنه تعدّت بنشر الكتاب صدى دمشق ومصر وشملت المعرفة العالم العربي والاسلامي زمانا ومكانا، ولا تزال قيمة النفح في عز مجدها. يقول في ذلك المقري: **"كنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة، وأثناء التأمّل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة، نتجاذب فيها أهداب الآداب، ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى لباب الألباب... ونستدعي أعلام الأعلام، فينجرّ بنا الكلام والحديث شجون، وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، ووصف رياضها السندسية... فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني... ما تثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع السّليمة وترتضيه من النظم الجزل في الجدّ والهزل... فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعلق بقلوبهم، وأضحى منتهى مطلوبهم، ومنية آمالهم وأطماعهم... فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه..."**[140]

محتوى كتاب نفح الطيب

يحتوي كتاب نفح الطيب على 8 مجلدات. وهو مقسم إلى قسمين؛

القسم الأول وقد خصه بأربعة مجلدات، ولكل مجلد أبواب:

المجلد الأول:

الباب الأول في وصف جزيرة الأندلس جغرافيتها وتضاريسها وحسنها ومآثرها

الباب الثاني عن تاريخ الفتح الاسلامي للأندلس على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد

الباب الثالث عن عز الأندلس بالإسلام، وما كان لها من مجد في القوة والجهاد.

[140]- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج1، ص 69- 70.

الباب الرابع عن وصف قرطبة وعن الزهراء والعامرية ومنتزهاتها وعن حكامها كالمنصور بن أبي عامر

المجلد الثاني:

الباب الخامس في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق

المجلد الثالث

الباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق

الباب السابع : عن عبقرية الأندلسيين في مختلف الفنون

المجلد الرابع

الباب الثامن تتمة للباب السابع

القسم الثاني وقد خصه بأربعة مجلدات –أيضا–، ولكل مجلد أبواب:

المجلد الخامس

الباب الأول عن لسان الدين وذكر أسلافه، الذين ورث عنهم المجد وارتضع در أخلافه، وما يناسب ذلك مما لا يعدل المنصف إلى خلافه

الباب الثاني في أخبار لسان الدين بن الخطيب نشأته ومختلف أطوار حياته السعيدة منها والبائسة حتى وفاته

الباب الثالث في ذكر مشايخه

المجلد السادس

الباب الرابع في صلاته بالملوك وسفراته

المجلد السابع

الباب الخامس في أدب لسان الدين بن الخطيب شعرا ونثرا

الباب السادس في مصنفاته ومؤلفاته في شتى الفنون

الباب السابع عن تلامذته

الباب الثامن في ذكر أولاده، ومن اتصف بصفاته.

المجلد الثامن فهارس الكتاب من عمل المحقق والناشر

7. 1. مؤلفات أخرى

1. كتاب روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس:

يعود الداعي إلى تأليف كتاب روضة الآس، إلى شيء من طبيعة الاعتراف بالفضل للسلطان أحمد المنصور الذي أغدق عليه ووفر له جو الاحترام والتقدير حين لازمه قرابة سنتين حتى إنه لما رجع إلى وطنه وهمّ بالعودة إلى فاس فكّر في هذا المشروع، بينما خاب حلم المقري إذ أنه عندما انتهى من تأليفه وحمله معه إلى فاس وجد السلطان قد توفي وخلفه من بعده أحد أبنائه.

مضمون الكتاب

يعد كتاب روضة الآس باكورة تآليف المقري، أراد من خلاله أن يعرف بعلماء فاس ومراكش ممن تعرف عليهم من ذوي النبوغ في العلم والأدب والسياسة خلال تواجده في أثناء إقامته الأولى والذين بلغ عددهم 430 شخصية.. وظل هذا الكتاب مفقودا أكثر من ثلاثة قرون، إلى أن أحاطته العناية الالهية ليرى النور عن طريق عبد الوهّاب بن منصور الذي تكفّل بتحقيقه ونشره.

ويتفرع الكتاب إلى قسمين:

-قسم خاص بما يتعلق بحياة السلطان المنصور ودولته ومآثره ومؤسساته.

-وقسم آخر خاص بالعلماء والشعراء الذين اتصل بهم وعددهم.

1. كتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي

الكتاب عبارة عن موسوعة علمية وثقافية، تشمل (الأدب، وتاريخ الأندلس وأعلامها. يشبه إلى حد كبير كتاب النفح.

بدأ كتابه بترجمة للقاضي" عياض "مفصلة جدًّا، بحث فيها عن نشأته في صباه وشبابه وكهولته، ثم فصل القول في شيوخه، وعُنِي بذِكر مؤلفاتهم، وخص بالعناية النتاج الأدبي للمترجم له، وعمله في خدمة السلطان، ووفاته وآراء الناس فيه.

وفي الكتاب طائفة كبيرة من الأخبار والقصص المغربية والأندلسية التي لم ترد في كتابه السالف" نفح الطيب"، ولا في غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن.

وفي الكتاب أيضًا ترجمة مفصلة لـ" لسان الدين بن الخطيب "يتخللها كثير من الاستطراد على عادته، وفي الجزء الثاني منه ألوان من الموشحات، وتراجم لبعض العظماء، مع استطراد كثير إلى القاضي" عياض."

المحاضرة العاشرة:

العهد العثماني

(2)

سعيد بن عبد الله المنداسي

(ت 1088 هـ)

1. الجانب الشخصي في حياة سعيد بن عبد الله، التلمساني

- **عصر المنداسي**

انظر المحاضرة السابقة (المقري)

2. نشأة وتعلمه

هو سعيد بن عبد الله، التلمساني المنشأ، المنداسي (منطقة بغيلزان) الأصل.

عاش فى القرن الحادي عشر الهجري، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شيء عن أسرته ونشأته.. ولا بد أن نشأ مثل لداته يعنى بحفظ القرآن الكريم، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح، ونظم كثيرا من النوع الأول[141].

2. 1. مواهبه

تكمن موهبة المنداسي في مزاوجته الشعرية، فهو ثنائي الشاعرية : فقد نبغ في الشعر الفصيح ويعرف بالموزون، والملحون[142] كما أنه يعد من أهم شعراء المدائح النبوية، حيث تكمن شهرته في قصيدة نبوية المسماة "العقيقة" في نحو ثلاثمائة بيت. وهو من يعود إليه الفضل في وضع أسس مدرسة الحوزي في الغناء التلمساني[143].

3. هجرته إلى المغرب

في الحدث الذي تم فيه غزو السلطان العلوي صاحب سجلماسة محمد بن الشريف مدينة تلمسان مستغلا الصراع العثماني الزياني في خمسينيات القرن الحادي عشر الهجري، كما أسلفنا، وخلال إقامته فيها كان المنداسي من المقربين عنده، حتى صار من حاشيته، وبعد أن أجلى العثمانيون السلطان إلى المغرب، لم

---

[141]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج 10، 1995، ص 162.

[142]–. رابح، بونار، ديوان المنداسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص05 .

[143]– ينظر أبي القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 ، ص 257.

يفرط في المنداسي فأخذه معه إلى عاصمته، وقد مدح المنداس السلطان "بقصائد شعبية كثيرة وإنه أغدق عليه كثيرا من نواله، وخلفه أخوه الرشيد، وظل سعيد يقدّم إليه مدائحه الشعبية، والرشيد يقرّبه ويجزل له في العطاء حتى قال صاحب الاستقصاء إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه، وتوفى وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوى سنة 1079 هـ/ 1668م. وكان من وظيفة المنداسي بالمغرب، أن كلف بتدريس مولاي إسماعيل مدة عشر سنين. ويظهر أنه تعهّده، بذلك، وهو لا يزال طفلا لا يفقه شيئاً . حتى صار لإسماعيل شأن، وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء، وشيد كثيرا من الآثار، مما جعل سعيدا المنداسى يتغنى طويلا بمديحه في شعره الشعبي، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطاياه، حتى ليقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه[144].

4. وفاة المنداسي

توفى الشاعر في عهد السلطان إسماعيل بسجلماسة، هذا ما يذهب إليه جل المؤرخين، وإن كان البعض منهم يقول بأن المنداسي عاد إلى بلده وتوفى فيها ولا يعرف تاريخ وفاته، ومن بين الباحثين الذين يرجح وفاته بسجلماسة: رابح بونار[145]، و أبو القاسم سعد الله[146]. وكانت سنة وفاته 1088 هـ.

5 . آثار المنداسي

العقيقة

وهي قصيدة في غرض المدح النبوي، وبلغت هذه القصيدة شهرة كبيرة في الجزائر وفي خارجها، لقد برهن فيها الشاعر قوته الشعرية سبكا، وصدقا في الوجدان نحو حبه النبوي، ما جعل المهتمين من العلماء ممن جاء بعده بشرحها، وقد شرحها محمد أبوراس الناصر الجزائري سبعة شروح أهمها: " الدرة الأنيقة في شرح العقيقة ".

بناء القصيدة (العقيقة)

العقيق هو واد يبعد بضعة عشرة أميال على المدينة المنورة

الأطلال

كيف ينسى قلبي عرب العقيـــق والبان والعقيق عيوني يا قلايد وانهلـو
لي عقيلة منهم غؤة شقيقة البـان هل لقلبي منهم بعض الوصال هل لـو
بان صبري والسر الكاتمو الصدر بان كيف يمهل دمعي والوجد لا مهل لـو

---

[144]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص 163.

[145]- ديوان المنداسي، ص 07.

[146]- ينظر تاريخ الجزائر الثقافي، ص 257.

الغزل

آه على من عشق ولا نال المطلوب قلبو من ما غلاظ حجاب الصون عليــه
واصبح من ما لقى من راحة مسلوب بحبال الواهية يــد الحسن تدليـــه
الغالب ما عرف حقيقة المغلــوب ما يعرف لو في دنيتو باش يسليــه

الخمرة

في بساطو هاضم الصبوح شملـــي ولا بصرت سيواها بين الدنان ساقــي
نشرب بغير عقل حتى ذبات نملــي في كناين جسدي مرهاتني لساقـــي
فصمت عراى بيديها و قست حملــي من الهموم وغمرت من الطرب أوساقي

السيرة

يهجرو محمد حاشا يكون فتـــان كيف قالو فيه النغاص كيف جعلـــــو
كيف ينسى قلبي عرب العقيق و البان والعقيق عيوني يا قلايد وانهلـــــــــو
دار الندوة دعات الأعيان من الجيش حيى ان قالو صبأ أو ضل بن الخطاب

الفخر

الوزن ألقى العصاء على بابي و ارتاح ما ينصرني إذا نروم الشعر خليـــــل
حضرت عين اليقين والترديد ألتـاح واضحى عندي من المذاهب فيه دليل
مديت كفوف فقرو اغناني الفتـــاح عمري ما ننتظر من الناس التعليـــل

المحاضرة الثالثة عشر:

العهد العثماني
(3)
عبد الرزاق بن حمادوش
(1107- 1195 / 1695 - 1780م)

1. الجانب الشخصي في حياة ابن حمادوش.

1. 1. عصر ابن حمادوش

1. 1. 1. السياسي

عاش ابن حمادوش في المرحلة الأخيرة من مراحل الحكم العثماني في الجزائر، وهي أطول مرحلة من مراحلها الأربعة، والتي امتدت ما بين (1671 – 1830م).. وقد عرفت هذه المرحلة قبضة نظام الحكم بأيدي رياس البحر، الذين سلبوا الحكم من الآغوات المستبدّون في حكمهم من قبل.. وما تميز به نظام الحكم في عهد رياس البحر، أن الجزائر عرفت استقلالا كاملا عن الدولة العثمانية..

وقد عرفت الحياة السياسية بالنسبة للجزائر ابان هذه الحقبة استقرارا في أول الأمر، حيث خرجت عن الباب العالي منفردة في قراراتها، وأثبتت قوة عسكرية على مستوى البحرية، التي خضعت لها رقاب القوات الأوروبية، إلى أن "أصبحت دولة واسعة الاستقلال، تستقبل الممثلين الأجانب وتعقد الصلح وتمضي المعاهدات"[147] وقد كانت من أقوى دول المغرب العربي. وعرفت خلالها إنهاء التواجد الاسباني على الأرض الجزائرية منذ عام 1792 وهي السنة التي استكملت فيها بالجزائر استقلالها باسترجاع مدينة وهران وتحريرها من يد الإسبان، بعد صراع دام ثلاثة قرون.[148]

ثم لم يدم الاستقرار الذي شهده القرن السابع عشر، حيث تحوّل هذا الاستقرار إلى تطاحن وتدافع على السلطة، وكثرت الاغتيالات مع القرن الثامن عشر.. وفي ظل هذا الاضطراب السياسي والفوضى العارمة التي شهدتها البلد، تكالب الأوروبيون على الأسطول الجزائري الذي أنهكه التدافع السياسي، وأصبحت السواحل الجزائرية بؤرة للغارات البحرية الغربية (الإسبان، وانجلترا وفرنسا) انتقاما وكسر شوكة تلك القوة المعهودة التي كانت ترعب في عرض البحر...

1. 1. 2. الثقافي

---

[147]- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 ،عالم المعرفة، الجزائر، 2010 ،ص40 .

[148]- ينظر محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص .18.

لقد عرف المجتمع الجزائري في هذا العهد تنوعا جنسيا وأثنوجرافيا، بفضل التشكيلة الاجتماعية التي نتجت عن التنوع العرقي (الأتراك، الكراغلة، العرب، اليهود، الحضر، الريف، الأشراف، الأندلسيون، المسيحيون، الزنوج...)

وأصاب المجتمع ظاهرة التقهقر العلمي والمعرفي، وساد التصوف نتيجة حتمية لهجرة العلماء بسبب تزعزع الأمن، وخلت المراكز العلمية، إلا من الزوايا التي حلّت بديلا في سبيل الحفاظ على الهوية العربية والدينية... وقد "كان للزوايا دور ثقافي هام تمثل في النشاط الديني والعلمي، فقد تخرج بفضلها عدد من الطلبة، بالإضافة إلى المساجد التّي لعبت دورا هاما في تدريس مختلف العلوم، فقد كان المسجد مكانا للعبادة ومدرسة للتعليم ودارا للقضاء ومأوى للطلبة وعابري السبيل149. إن الزوايا المنتشرة حافظت على الحد الأدنى من رسوخ هوية المجتمع، فهي قد اعتمدت على التربية الروحية والوجدانية بلكل شرائح المجتمع، بالإضافة إلى محاربتها الأفكار الخاطئة.. وكانت الزوايا مع المساجد مستفحلة الانتشار، تؤدي دورها كمؤسسة تربوية وتعليمية، كما كانت هي الحاضنة للمخطوطات، والكتب، وجملة الوسائل الثقافية.

وإذا كان هذا الظاهر من الحياة الثقافية في عهد الدايات، فإن طبقات المجتمع في اختلاف نسيجها وتنوع أعراقها، وتراوح مستوياتها، كان لها دور كبير في إرساء ثقافة على هامش مركزية الدولة، إلا أن هذا الهامش كان في الحقيقة هو المركز، الذي بفضله ظهرت طبقات من العلماء والشعراء والأدباء، وفحول الموسيقى، والتفاعل الثقافي الذي أحدثه التجار، كما أن الاحتكاك بالأوروبيين من طريق الموانئ150 أثبت نموذجا خاصا في الثقافة الجزائرية آنذاك، وخلص إلى ظهور نماذج من العلماء لا غبار عليهم في فنون شتى وأدباء أماجد، وشعراء فحول.

1. 2. نشأة ابن حمادوش وتعلمه.

. مولده ونشأته

هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد ، المعروف بابن حمادوش الجزائري، ولد في مدينة الجزائر سنة 1107 هـ (1695م) وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين. درس في وطنه ثم ترحل إلى بقاع مختلفة للحج وطلب العلم. مشرقا ومغربا، عاش ابن حماد وش فقيرا كما أنه عاصر أحداثا هامة في بلاده وفي العالم ،خصوصا المحاولات للهجومات والغارات الاسبانية المتكررة على الجزائر. وأهم ما يميز شخصية ابن حمادوش هو تمكنه من العلوم الشرعية واللغوية، فهو طبيب وصيدلي ومهتم بعلم الحساب والفلك.

149– مؤيد محمود حمد المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518–1830 ،مجلة الدراسات التاريخية والحضارية (مجلة علمية محكمة)، المجلد 5 ،العدد 16 ،سنة 2019 ،جامعة تكريت، ص494–435

150– ينظر، مؤيد محمود حمد المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني .

شيوخه

تعددت مشارب الأخذ لدى ابن حمادوش، فتعددت اهتماماتهم العلمية والأدبية، وتكاملت مواهبه ي شتى الفنون، حتى أضحى عالما أديبا، أي أنه قد مزج بين العلمي والفني.. وإن دلّ على شيء فإنما يدل على اهتمامه بالطريقين معا، وهذا يستلزم مجالسة العلماء، والأخذ عنهم.. وإن طبيعة عصره كانت تتوفر على مراكز علمية ذات الاختصاصات المختلفة بما يتناسب وطبيعة الميول الفردي، وإلى جانب المراكز العلمية التي تتوفر عليها البلاد، فإن طالب العلم كان يرغب في الرحلة في طلب العلم، من أجل الاستزادة والتبحر من جهة، ومن أجل الحصول على الإجازات العلمية من جهة أخرى.

وفي ذلك نشهد أن ابن حمادوش قد كان له شيوخ وأساتذة أخذ عنهم أسباب العلم، منهم داخل الوطن الشيخ محمد بن ميمون والمفتي الشاعر ابن على وعبد الرحمن الشارف والقاضي مصطفى بن رمضان العنابي، وأحمد الزروق البوني، وغيرهم كثير.. كما أنه قد أخذ عن شيوخ المغرب من أمثال الشيخ محمد بن عبد السلام البناني الفاسي واحمد الورززي التيطواني واحمد السرائري واحمد بن المبارك.. أما في تونس نجد له الشيخ محمد زيتونة.

أما في الطب والصيدلة فقد تتلمذ على يد الطبيب العالم عبد الوهاب أدراق طبيب السلطان المولى إسماعيل.

مؤلفاته

- في الأدب واللغة

- رحلته المشهورة التي سماها لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والآل.
- المقامات الادبية
- شرح على قصيدة الربع على كردفر.
- وفي النحو (السانح)و هو شرح على الفية ابن مالك.
- الدرر في المختصر على المنطق.

- أما في الطب فتعددت مؤلفاته، ومنها:

- الجوهر المكنون من بحر القانون
- كشف الرموز في العقاقير والاعشاب.
- تعديل المزاج بقوانين العلاج.
- في الطاعون

- وله أيضا في فنون أخرى في الحساب والفلك والمتفجرات

- الاسطرلاب والربع المقنطر
- فتح المجيب في علم التكعيب وهو نفسه بعنوان مختلف: بغية الاديب في علم التكعيب

- علم البلوط(معرفة الطرق البحرية)
- القوس لرصد الشمس
- الرخامة الظلية بالحساب
- صورة الكرة الارضية
- علم البونبة (المتفجرات)

3. أدب ابن حمادوش

3. 1. الشعر

لقد أقرّ ابن حمادوش بأن له ديوان شعري، متعدد الأغراض، يقول: "بنيت ديواني على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى صلى الله عليه وسلم"[151] إلا أن ديوان ابن حمادوش مثله مثل كثير من الأعمال الأدبية والتاريخية في تاريخ الجزائر التي ضاعت مخلفة آثارا مخيبة.. أما ما تبقى من شعره فهو المتوزع في بعض أعماله الأدبية الأخرى على غرار "رحلته".

ومما نجده في نص رحلته، قصائد في المدح منها التي يمدح فيها السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل الأول[152]:

أمـــولاي عبد الله طبـــت أبُـــوّةً ... قفارًا لا تأويها الوحوش مع الطيـــر
أيا ابن الليوث العاديات على العدا ... ويا ابن الكرام الراحمين لذي الفقر
أبـوك النَّـــوى للفاسقيـــن وإنـــه ... لغيث على أرض المساكيـــن بالخير
وأنت لعمـــر الله سيـــف مهنـــد ... وفي الجـود بحرٌ إلا أنـــه للأجـــر
رأيت بالقنطار ضيفـــت قاضيـــنا ... وقنطارك المـــوزون بثقـــل الظهـــر
وأصحابك الغر الكرام فإنهـــم ... عيون كحلقة النجوم النجوم على البدر

كما أن له في المصدر نفسه قصيدة مدح أخرى يمدح فيها السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل وذلك بعد كسر شوكة المتمرد "أحمد الريفي" مطلعها[153]:

أمولاي عبد الله بشرك الهنا ... بكل الذي تبغي من الفتح والنصر
وساقت رياح السعد جارية الهنا ... لساحل بحرك المفيض على اليسر

---

[151]– عبد الرزاق بن حمادوش، لسان النقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 118.

[152]– المصدر نفسه، ص 117.

[153]– المصدر نفسه، ص 97.

أما مدح العلماء فقد تجسدت في مدح شيخه أحمد بن المبارك، يلح عليه ملتمسا طلبا في الاجازة، وينوّه بالعلم في زمانه، ومنها هذه الأبيات[154]"

أيا شيخنا شيخ البركة كلـــــــها أسيدي أحمد المبارك في الدهري
علوت على أعلا ذرى المجـد رفعة فكنت في أوج العز كالكوكب الري
وكنت نسيج وحدك اليوم في العدى ومن أين للإسلام مثلك كالنـــيري

ومن بين أهم الأغراض في شعر ابن حمادوش الحنين إلى الوطن، وهذا جراء الاغتراب الذي شعر به فاستفزه وحرك مشاعره فأطاع، وخلّد قائلا[155]:

لقد كنت قبل اليوم أصبر صابر وها أنا في هـــــذا الأوان ذليل
أنوح على بعد الديار صبابـــة نواحي الثكالى تحسبوني جميل
بثينة عندي وإني جـــــــارها وفارقتها كرها فإنـي عليـــــل
وقد أدرك العيد والخيـل دياره على شطط فما إليه سبيـــــل
فلو كان طيـــرا يطير ببغيتـــي إلى دار زهرا بالكتاب يديـــل

وتدل مصادر شعر ابن حمادوش، أن له وفرة في ذلك، وأن طبيعة شعره هذا تنم على اغتراب تعرض له وهو في المغرب بعيدا عن أهله ووطنه.. كما أن نفَس الشعر لديه يوحي بفيض فني وطرب يدل على مقدرة إبداعية.

3. 2. الرحلة

3. 2. 1. رحلة ابن حمادوش الجزائري

إن المتفق بين الدارسين في مجال الرحلة الجزائرية، أن رحلة ابن حمادوش المعروفة بـ"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" مبتورة –منقوصة– وما وصلنا منها إلا الجزء الثاني، أما الجزء الأول فيعدّ مفقودا حاليا.

وقد كانت رحلة ابن حمادوش رحلة استثنائية في تاريخ الرحلة المغاربية حيث خالف صاحبها المسلك فاتجه على نقيضهم، وهي قريبة من كتابة المذكرات واليوميات، كما يقول أبو القاسم سعد الله بأن صاحبها سماها رحلة[156] ولكن هذا لم يقلّل من شأنها كونها رحلة ما دامت تعتمد على بنية السفر في تأسيس نصّها، ولعل (سعد الله) انطلق من كون ابن حمادوش أسهب في حديثه عن نشاطه الشخصي في الجزائر، ولكن

---

[154]– نفسه، ص 83.

[155]– نفسه، ص 108.

[156] – أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982، ص 69.

حديثه أيضا عن سفره إلى المغرب كان فيه ما يبرّر نصه الرحلي. وأما عن دافع هذه الرحلة فهو مزدوج بين طلب العلم والتجارة، ومن ثم غادر مدينة الجزائر باتجاه تيطوان ومكناس وفاس، ثم عاد بعدها إلى الجزائر.

وقد كان خروجه من ميناء الجزائر في 14 فبراير 1743 إلى مدينة تيطوان مرورا بجبل طارق، كما شهدت الرحلة وصوله فاس والتقائه بعلمائها. وقد أورد في حديثه عن المغرب الأقصى وصفه للحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية ولقاءاته بالعلماء ومجالسته للفقهاء ومناقشتهم وتحصيله للإجازات. أما من الناحية السياسية فيتحدّث عن الصراعات حول السلطة بين حاكم تيطوان وسلطان المغرب، وينقل بعض عادات المغاربة وغرائبهم خاصة في فاس.

ويقسّم أبو القاسم سعد الله مضمون رحلة ابن حمادوش إلى ثلاث وحدات: "الحوادث، والعادات، والعلماء"[157]فقد كان ابن حمادوش يتحدث عن عادات المغاربة الاجتماعية منها وغير الاجتماعية، ومن ذلك عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ويقارن بينها وبين عادة الجزائريين في ذلك، من مظاهر احتفالية ومطعم وملبس. أما من الناحية العلمية فيتحدث عن العلماء الذين زارهم ومنهم من أجازه كالشيخ البناني والتزري ومحمد الطيب الفاسي وغيرهم.

وقد كانت رحلة ابن حمادوش إلى فاس من أجل بيع سلعته، أما محطته في تيطوان فكانت لشراء الكتب الدينية والأدبية.

وبالمقابل تعدّ رحلة ابن حمادوش ذات قيمة في تاريخ الجزائر فقد عدّت الرحلة مصدرا هاما إذ تطرّق لعادات الجزائريين وأخبار علمائهم، وعادات الزواج، والجوانب السياسية، تَحدّث عن باشاوات الجزائر وسلاطين الدولة العثمانية، والصراع الإسباني العثماني وغيرها في اقتضاب شديد، أما بخصوص حديثه عن العلم والعلماء والمشايخ الذين لقيهم، نجده قد أطنب في ذلك، فخصّ منهم: محمد بن ميمون، وأحمد بن عمار، وغيرهما. وأما من الناحية الأدبية فهي خالية من الصنعة؛ لأن أهم ما تفاضل به ابن حمادوش عن غيره في أسلوبه اللغوي السهل البسيط الذي يقترب من المؤلفين اليوم، فأسلوبه "يمتاز بالسلاسة والتتابع، ولا يثقل إلا عبارة الانتقال من فكرة إلى فكرة أو من فاصل زمني إلى آخر"[158] كما أننا نجد له ميزة قلما نجدها عند كتاب عصره "فابن حمادوش يكتب بدون سجع ولا محسنات بديعية رغم شيوعها عندئذ عند معاصريه"[159].

ومن بين ما امتازت به رحلة ابن حمادوش من أهمية، أنها احتوت على ترجمته الشخصية التي تنعدم في مؤلفات من عاصره، ومن ألف في تاريخ الأعلام، فهو يعدّ الوحيد الذي شهد على نفسه بالحضور في عالم

---

[157] – نفسه، ص 59.

[158] – نفسه، ص 59.

[159] – الطبيب الرحالة ابن حمادوش، مرجع سابق، ص 59.

المعرفة الجزائري في ذلك الوقت، ومن هذا الباب تحسب للرحلة أنها "مصدراً هاماً لحياة المؤلف، بل تكاد تكون المصدر الوحيد المعروف عنه حتى الآن"[160].

[160] – نفسه، ص 77.

المحاضرة الحادية عشر:

العهد العثماني

(4)

أحمد بن عمار

(1119هـ/ 1707م - ....؟)

1. الجانب الشخصي في حياة أحمد بن عمار

1. 1. عصر أحمد بن عمار

قد تم التطرق للحياة السياسية والثقافية في هذا العصر من خلال المحاضرة السابقة (حول ابن حمادوش)

1. 2. حياة أحمد بن عمار

هو أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرحمان بن عمار الجزائري، عالم صوفي وأديب شاعر، ولد ونشأ بمدينة الجزائر في حوالي سنة 1119هـ/ 1707م، وعاش إلى ما بعد سنة 1205هـ/ 1790م ولم تحدد المصادر تاريخاً معيناً لوفاته، درس على يد الشيخ محمد بن محمد المعروف بابن علي، أوكل لمنصب الإفتاء بمسقط رأسه، وبعد أداء فريضة الحج في أوائل سنة 1166هـ/1752م، مكث بالحرمين الشريفين مدة عشرين سنة وصل فيها حتى سنة 1172هـ/ 1758م ( ) وهذه الإقامة الطويلة أكسبته ثقافة واسعة وعلم غزير، ليواصل تنقلاته بين مصر تونس والجزائر لعدة مرات.

- **تلاميذه:**

من تلاميذه محمد أبو راس الناصر من الجزائر الذي درس عليه بعض العلوم، من بينها فقه الامام أبي حنيفة، واحمد الغزال من المغرب، وإبراهيم السيالة من تونس، ومحمد خليل المراي من الشام، وعمر بن عبد الكريم من مكة المعروف بابن عبد الرسول المكي الحنفي) ت(1247 ، أصبح يدعى "بشيخ الإسلام1 "، كما ذكر الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف ان ابن الشاهد كذلك

من تلاميذه وأورد قصيدة يشيد فيها بأستاذه ابن عمار.

- **مؤلّفــاته:**

ألف ابن عمار في عدة فنون، ومعظم تأليفه يعتبر في حكم الضائع، ومما تذكره المصادر من مؤلفاته:

-لواء النصر في فضلاء العصر: وهو في التراجم لعلماء عصره، لكنه مفقود للأسف.

-وديوان شعره، مفقود لولا بعض القصائد التي حققها ونشرها الدكتور أبو القاسم سعد الله.

-رحلته الحجازية كلها مفقودة باستثناء(نبذة) منها، المسماة (نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب.(

-ومن كتبه المفقودة أيضاً (تاريخ علي باي(

-رسالة في مسألة وقف، وهي مطبوعة..

2. أدب ابن عمار

2. 1. ابن عمار شاعرا

....

أبدع ابن عمار في جل الأغراض الشعرية التقليدية، من (مدح ووصف وغزل وهجاء وفخر ...)

ومما يلاحظ على شعر ابن عمار هيمنة غرض المدح، وقد كان على هيبته باعتباره رجل دين وعلم وزهد، فقد كان يمدح ذوي السلطان المشهود لهم بالحكم الراشد، والبطولات.. وقد كان المدح بالنسبة لابن عمار في غالبه ثناءً يخص به أهل العلم والأدب.. وقد حلّ شعره في هذا الغرض بمن كان أحق بالمدح، رسولنا صلى الله عليه وسلم، فقد خصّه بحصّة معتبرة من كمّ شعره، فقد" كان ابن عمار من كبار الشعراء في القرن الثاني عشر الهجري، وله شعر كثير"[161] ولعله عدّ من أهم شعراء المديح النبوي.. وإنه بلغ في ذلك مبلغا فنيا راقيا لصدقه الوجداني في ذلك، ومن ذلك قوله[162]:

يَا نَسِيمًا بَاتَ مِنَ زَهْرِ الرُّبَى	**يَقْتَفِي الرُّكْبَانَ**
اِحْمِلْنَ مِـــنِّي سَـلاَمًا طَيِّبًا	**لِأُهَيْلَ البَانَ**
اِقْرَأْنَ منِّي سَلاَمًا عبِـــــقًا	**إِنْ بَدَتْ نَجدُ**
إِنَّ لِي قَلْبًا إِلَيْـــــهَا شَيِقًا	**شَفَّهُ وَجَدُ**
وَفُؤَادِي يجْتَبِيـهَا حَـــرَقًا	**وَضَنِّي يَعْدُو**
وَدُمُوعُ العَيْنُ تَهْ مَى سَحَبًا	**قَطْرُهَا هَتَّانَ**
وَالكَرَى عَنْ مُقْلَتِي قَدْ غَضِبَا	**وَجَفَا الأَجْفَانَ**
يَا رَعَى اللهُ فُؤَادِي كَمْ لَـــهُ	**لِلْحِمَى تَوْقُ**
كُلَّمَـــا حَـــثَّ الرِكَـــابُ	**بِزَلِهِ هَزَّهُ شَوْقُ**
وَحَنِينًا ينْقَضـــي لَيْلُـــــــهُ	**إِنْ سَرَى بَرْقُ**

[161]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 10 ، ص.217

[162]- نحلة اللبيب ص 16.

وأما في مده للعلماء قوله[163]:

يَا بَارِعًا بَرَزَتْ سَوَابِقَ فِكْـــــــرِهِ ... فِي حَلَبَةِ الشُعَرَاءِ وَالكُتَّابِ
صُغْتَ المَعَانِي فِي اِنْتِظَامِكَ أَعْيُنًا ... وَرَقَائِقَ الأَلْفَاظِ كَالأَهْدَابِ
أَبْرَزْتَهَا مِنْ خَـدْرِ فِكْرِكَ خَـــرْدًا ... تَخْتَالُ فِي حُلَلٍ مِنَ الآدَابِ
ذِهْنٌ يَسِيلُ وَفِكْـــرَةٌ مَشْبُوبَـــةٌ ... وَذَلِيقُ نُطْقٍ صَادِعٍ بِصَوَابِ

أما الوصف فقد بلغ فيه مبلغا فنيا لائقا، حتى أن أبا القاسم سعد الله يعتبره "بدون شك من كبار الأدباء وأبرز الشعراء، وخصوصا في ميدان الوصف، فهو فيه كشيخه ابن علي في الغزل"[164] وكان أشد ما يخصه في الوصف، الطبيعة، خاصة وأن الجزائر العاصمة كانت محل للبساتين، فها هي وصفة من وصفاته في ذلك قوله في منتزه من المنتزهات[165]:

فِي رَوْضَةٍ نَسَـــجَ الرَّبِيْعُ بِسَاطَهَا ... مِنْ سُنْدُسٍ وَوَشَى مَطَارِفَهَا المَطَرْ
غَنَّاءُ تُسْلِـــيْ رَوْنَقًا وَنَظَـــارَةً ... قَلْبَ الشَّجِيّ إِذَا أَجَالَ بِهَا النَّظَرْ
بَاكَرْتُـــهَا وَنَسِيْمُـــهَا مُتَأَرِّجٌ ... يُفْشِيْ الذيْ سَتَرَتْهُ أَكْمَامُ الزَّهَرْ
وَالوَرْقُ تُفْصِحُ بِالهَدِيِّلِ كَأَنَّهَا ... خَطْبَاءُ مُنْشِدَةٌ مَنَابِرُهَا الشَّجَـــرْ
فَمُصَقِّرٌ طَـــرَباً بِوَصْـــلِ حَبِيْبِهِ ... وَمُغَرِدٌ بَاكٍ أَلِيْـــفاً قَـــدْ نَفَرْ
وَتَمَايَلَتْ أَغْصَانُهَا طَـــرَباً بِمَا ... تُنْشِيْهِ مِنْ أَلْحَانِهَا وَقْتَ السَّحَرْ

2. 2. ابن عمار رحالة

رحلة ابن عمار

يعد ابن عمار من أهم العلماء الجزائريين في عصره، فهو الفقيه والعالم المحدّث والمؤرخ، والأديب والشاعر والرحالة، ومن أعماله الرحلية، رحلة حجازية سماها "نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب".

ومما يحمد ويؤسف له في الآن نفسه أن الرّحلة وجدت ولكنها مبتورة. لقد دوّن ابن عمار رحلته في ثلاثة أجزاء، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة أطلق عليه اسما، أما القسم الأول فأطلق عليه اسم "مقدمة"، أما الثاني "غرض مقصود"، والثالث "خاتمة". وما يؤسف له هو أن الجزأين الثاني والثالث هما في حكم الضياع، وما توفر إلا الجزء الأول المعروف بالمقدمة، وهو كتاب كبير الحجم عرض فيه عن مقصده في الرحلة، والتحدث فيها عن دواعي الاستعداد النفسي والروحي لزيارة بيت الله، في صورة إبراز حبه للرسول

---

[163]- نحلة اللبيب ص 54.

164- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، ص 295.

[165]- نحلة اللبيب، ص 91.

الكريم ﷺ ، ووصفه أشواقه للبقاع المقدسة، فقد تطرّق في هذا الجزء –المقدمة– إلى الحديث عن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بالجزائر قديماً وحتى عصره وعن عادة الأندلسيين في ذلك، مدعّمه بالعادات الاحتفالية، ثم أغرقه بالحديث عن الشعر المولدي أو ما يُعرف بالمديح النبوي، بعد أن تحدّث عن دواعي الرحلة وسبب تسميتها بـ: «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»، مفصلا القول في شرعية الحج مستدلا ومستشهداً بآيات قرآنية وأحاديث مأثورة، وعبر عن عزمه على الحج تلك السنة أي في أوائل سنة 1166هـ/ 1752م.

وقد يجوز أن نعتبر هذه المقدمة دراسة أو مصدرا من مصادر المولديات في الشعر الجزائري والعربي في محطات هامة من تاريخ الأدب العربي إلى عصر ابن عمار، فقد تراوحت القصائد فيها وأكثرها من الطوال عددا معتبرا لمغاربة ومشرقيين، مع ترجمة للعديد من الأدباء والشعراء من أهل بلده وغيرهم.

المحاضرة الثانية عشر:

العهد العثماني

(5)

الحسين الورثلاني

(1125هـ/1713م - 1194هـ/ 1780م)

1. الجانب الشخصي في حياة سعيد بن عبد الله، التلمساني

1. 1. حياة الحسين الورثلاني

1. 2. 1. مولده ونشأته

هو الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورتلاني نسبة إلى قرية بني ورتلان، قرب بجاية، ولد سنة 1125هـ/1713م، ينتمي إلى أسرة عربية شريفة اشتهرت بالعلم والتصوف والتدريس والإصلاح، تربى بزوايا بلده، ثم شد الرحال إلى المراكز العلمية المشهورة، فاغتنم فرصة سفره للحج ووثّق صلته بعلماء تونس وطرابلس ومصر والحجاز. ومع كثرة رحلاته وشغفه لنيل المعارف أصبح الورتلاني علماً من أعلام عصره في القرن الثاني عشر هجري، لتمتعه بثقافة واسعة في فنون مختلفة، فكان عالماً في الفقه والتصوف والتوحيد والتاريخ والنحو والبلاغة والأدب وغيرها من العلوم. ينتمي الورتلاني كونه متصوفا إلى الطريقة الشاذلية، إلى جانب الطريقة الخلوتية، وجمعه بين الطريقتين يعود لتقارب في الأفكار والتعاليم وقلة الفروع بينهما، وكانت حياة الورتلاني مليئة بالحراك ما بين التدريس والتأليف والترحال، حتى وافته المنية سنة 1194هـ/ 1780م.

2. حياة الحسين الورثلاني العلمية والفكرية.

2. 1. التصوف عند الورثلاني (الورثلاني متصوفا)

تعددت مواهب الورثلاني، وتعشبت أركان علمه، فهو الفقيه والمؤرخ والأديب، إلا أن السمة البارزة في حياة الحسين الورثلاني النزعة الصوفية، اقتداءً ببيئته ومحيطه، ولم يكن الورثلاني من الصوفية الموغلين في التطرف الصوفي، ولا في التداعي بالخوارق، وإنما نلمس جليا موضوعية في خلال أسلوبه وطرحه.

وقد كان شاذليَّ الطريقة، وغلبت على نزعته الصزفية سلوكه المرابطي، إذ كان صوفيا عاملا بما تقتضيه طبيعة المرابط، مهتما بأحوال الناس، مصلحا ذات البين. "ومن الذين يدين لهم الناس بالطاعة الروحية والاحترام. وقد أصبح بعد ذلك من المدرسين وشيخ زاوية الأسرة"[166].

[166]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص 394.

2. 2. الورثلاني مؤرخا

يأتي علم التاريخ من أهم الميزات التي تميّز بها الورثلاني، وهذا نتيجة النزعة العلمية التي جعلته وهو يكتب رحلته الضخمة "نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار" يتجه فيها توجها تاريخيا، بله يقوم عنوان الرحلة على هذا الأمر، بمقتضى الحال تصريحا لا تضمينا، بأنها رحلة تستلهم التاريخ ويكون الخبر القائم عليها هو إبراز الأحداث في زمنه وفي الأزمة السابقة على عهده.

وقد جاءت رحلة مشفوعة بهذا العلم، مستلهمة العبر من التجارب السابقة، ومفسرا لأهم القضايا التي يسقط على الحاضر مآثر السابقين، موحيا بما له من اطلاع بتاريخ الأمم والحضارات السابقة، ومن كتب التراجم والسير، وهي كلها مصادر اعتمدها كمنهج في تدوين رحلته، أو تضمين رحلته، إضافة إلى هذا المنهج القئم على المادة العلمية، فإن منهجه هذا يتقاسم مع طريق آخر في المنهج، وهو السماع حين كان يحل بمنطقة من المناطق، فيأخذ مادته من أفواه الرجال الثقات كما في قوله:" وقد أخبرني شيخنا أبو المهدي عيسى الثعالبي أيام كنت أتردد معه الى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي[167]"

ولا شك أن رحلة الورثلاني وثيقة تاريخية لا نستطيع الاستغناء عنها لمعرفة فترة من تاريخ العهد العثماني في الجزائر من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية، وطبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم الاسلامي كله.

ولم تتوقف قيمة رحلة الورثلاني على قيمة المادة العلمية فقط، بل إلى ما يلتزم به الورثلاني من صدق وهو الأهم، فهو رجل معتدل وموضوعي مصداقيته كبيرة في رواية الأخبار، وعدم الغلوّ، والتحلي أخلاقيا في طرحه في التحريّ، كونه من الرجال الصالحين، المشهود لهم في ذلك.

كما أن نص رحلته لا تخلو من هنّات، إلا أن هذه الهنّات لا تنقصد من قيمة نصه العلمية، ومن هذه الهنات، الاستطراد الكثير، والأخذ عن رحلة الدرعي بنسبة كبيرة جدا، وهذا ما يحيل إلى القول بأن رحلة الورثلاني يحتوي على جسم دخيل في هيكلها الكلّي.

2. 3. الورثلاني أديبا

2. 3. 1. الورثلاني شاعرا

2. 3. 2. الورثلاني رحالة.

رحلة الورتلاني (1194هـ/ 1780م)

إن الحديث عن الورثلاني في الرحلة الجزائرية قديما أو حديثا، هو الحديث عن سيّد الرحالين الجزائريين وأميرهم، فقد اشتهر الورتلاني بالرحلة أكثر مما اشتهر بغيرها بالرغم من كونه عالما فقيها ومتصوفا كبيرا.

---

[167]- عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني 1518 -1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2015-2016 ،ص 212- 213.

وتعتبر رحلة الحسين الورتلاني واحدة من رحلات المغاربة خلال القرن الثامن عشر الذي يوافق فترة الحكم العثماني، ولعلها واحدة من أهم الرحلات التي أرادها صاحبها حجازية وعلمية فجمعت بين أدب الرحلة والكتابة الجغرافية وتدوين التاريخ.والمتأمل في عنوانها يدرك جملة مضامين احتوتها الرحلة، وهو "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار". ومن ثم كانت رحلته نصّا تاريخيا مختلفا عن كتب التاريخ العام أو الخاص فهي تتحدّث عن تاريخ حي معيش دوّن فيه صاحبه حياة الناس وبيئتهم ومعيشتهم، وبذلك استحقّت أن يكون في بنائها تاريخا اجتماعيا وثقافيا، فقد "التزم بالصدق في كل ما أورده من أحداث ووقائع، فهو يدلي برأيه بكل صراحة ويجاهر بالحق إن رأى في ذلك مصلحة"[168]

وقد كان الورتلاني عامدا على كتابة رحلته منذ البداية، فقد اشتغل بكل أمور ما ينسج به مادته الرحلية وكأنّ أمرا ما كان يدور في خلده، أو يشعر القارئ أنه تأسف على الرحلات التي خاضها ولم يدوّنها، فقام بنهم كبير يحصي كل كبيرة وصغيرة، ويأتي بمعلومات مضافة من مصادر أخرى منها الرحلات السابقة وكتب التراجم والتاريخ والجغرافيا، ولعله—حسب مختار بن الطاهر الفيلالي- قد اقتبس كثيرا من رحلة الدرعي الناصري الذي هو بدوره اقتبس معلومات مدونته من رحلة العياشي، بخصوص بعض الأماكن التي تحدث عنها، بعضها في تونس وبعضها في ليبيا وأخرى أيضا، قد أوقعته في الخلل[169].

وتعدّ رحلة الورتلاني مصدرا من مصادر التاريخ الجزائري والعربي، من نواحي متعدّدة، منها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، خصوصا ما يتعلق بالجزائر "وخاصة منطقة بلاد القبائل فهو يرسم صورة واضحة لما كان يجري بها نظرا إلى أن هذه المنطقة كانت في عزلة عن السلطة السياسية في البلاد؛ إذ اكتفت هذه السلطة بأن طوقتها بسلسلة من المراكز العسكرية وضعت في كل منها حاميات من الجند لمراقبتها ومحاصرتها"[170]. كما نجده قد اعتمد كثيرا على مصادر في هذا الشأن سواء في نصوص الرحّالين الذين سبقوه كالعياشي والدرعي والتيجاني والعبدري، أو المؤرخين كالبكري وابن حوقل والسيوطي وغيرهم، وفي ذلك يرُجع (ناصر الدين سعيدون) هذه العودة إلى المصادر التي اعتمدها الورتلاني من أجل "تحري الحقيقة فهو لا يكتفي بما شاهده أو رُوي له بل يلتجئ في بعض الأحيان تأكيدا لروايته أو استكمالا لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرحالين السابقين"[171] في حين يرى (مختار فيلالي) عكس هذا ويزعم أنها من عثرات الورتلاني الذي أصاب نصّه بعض العيوب التي لم يسلم منها جرّاء عدم التحري، وقد اقتبس ما يعادل نصف كتابه الضخم، "وهو في غالب الأحيان يهمل اسم المصدر أو صاحبه، مع الاقتباس غير المنظم، حيث نجده ينقل صفحات عديدة دون نقدها أو التعليق عليها، وسواء كانت موضوعة أم لا"[172]. ولقد حرّر فيلالي في كتابه

---

[168]- ناصر الدين سعيدون، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص420.

[169]- ينظر مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني—عرض ودراسة-، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1998، ص 62- 63.

[170]-المرجع نفسه، ص 5- 6.

[171]- من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص420.

[172]- رحلة الورتلاني—عرض ودراسة-، مرجع سابق، ص59.

مبحثا خاصا بالاقتباسات التي اعتمدها الورتلاني ومن ثم انتبه لأمر وكأنّه شَعَر بالاستطراد يقول "وربما يتساءل القارئ أو الباحث لماذا هذا الاهتمام الكبير باقتباسات الورتلاني؟ فنقول: إننا قمنا بذلك حتى ننصف الورتلاني، ونسجّل ماله وما عليه، ولنرفع الستار عن الغموض الذي يسود الرحلة، والذي جعل بعض الباحثين ينسبون أشياء للورتلاني، بينما الحقيقة ليست له، وإنما نقلها عن غيره"[173] كما يُبيّن في مواضع أخرى عيوب هذه الاقتباسات التي أتت مضطربة في موضوعاتها.

وعلى الرغم من هذا الذي نبّه إليه فيلالي، فهو لا ينقص من شأن الرحلة التي تعدّ مصدرا هاما من مصادر الدراسة التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري والعربي عموما في فترة حرجة من تاريخهم، خاصة وأنها فترة تفتقر إلى مصادر مهمة في هذا الشأن، "فهي تسجيل حي للوضع الاجتماعي والاقتصادي ووصف دقيق للمسالك والعمران ومحطات القوافل ونقاط الماء وصورة صادقة للواقع الثقافي، ولعل أهم ما يتميز به الورتلاني في هذا الجانب هو ترجمته للعديد من صُلحاء وعلماء ومشايخ وطنه"[174].

والمميز في كل الرحلة هو شمولها على ثقافة عصره من علم بالتاريخ وخصوصية في الأدب، وملامح البيئة، والصراعات الاجتماعية السائدة، وغيرها من الأمور التي ربما يتغافل عنها التاريخ، ومن جهة تؤسّس لرؤية أدبية من حيث الصنعة النثرية وصياغة أسلوب وبنى أفكار لذلك العصر.

وقد أهمّ الورتلاني منذ شروعه في الرحلة تدوين ملاحظاته الشخصية كما قام بتسجيل كل ما رآه في بيئته القريبة والبعيدة من الجزائر، كما اعتمد أيضا على الرواية الشفوية لأكثر شيوخ وعلماء الزوايا في مختلف مناطق البلاد، وكان كلّما توقّفت قافلته لنيل الراحة، أخذ أوراقاً يسجّل فيها ملاحظاته ومادته حتى لا تضيع من ذاكرته، ولعله جمع الكثير من الأخبار عن الأعيان والعلماء في كل بلاد زارها باتجاه الشرق في تونس وليبيا ومصر وغيرها من البلدان، كما تعدّ الرحلة بتميزها من حيث الصورة التي خلدها لمجتمعه الذي كان يرنو تحت خط الانكسار الثقافي وبذلك يكون تسجيله مهمّا لذلك الوضع القاتم، فقد انتقد ذلك الوضع وأعاب عليه كثيرا. وفي جملة يلخص لنا الورتلاني رحلته ومضمونها من خلال قوله: **"لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع والقفار والدِّيار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان، من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين والمحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيّما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية، مع ما فيها من التصوف مما فتح به**

---

[173]– المرجع نفسه، ص 69.

[174]– من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص421.

عليّ أو منقولاً من الكتب سيّما وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، هذا وإني أنقل أيضاً من بعض كتب التاريخ"[175]

وقد قام الورتلاني قبل السفر أو قبل الرحلة الرسمية، برحلة تبرك وزيارة لبعض العلماء والأولياء الصلحاء من مناطق عدة من ذلك منطقة الزيبان، ومدينة بجاية أين التقى بعلمائها الأولياء، ومن بجاية عاد إلى أهله استعدادًا للحج. ثم يتحدّث عن مزايا الحج ومساره الذي لا يخلو من الطرائف والشوق إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي المختار، إضافة إلى حديثه عن كل بلد ينزل فيه، ومن ذلك حديثه عن مصر التي خصّها بشيء من الحبور والإطناب الساحر مما يدل على أنه تأثر بمصر كثيرا، ولقد حقّق قولة شهيرة عند المصريين الذين يقولون في شعارهم الشهير "يا داخل مصر منك الكثير" وهو ما يجسده الورثلاني بشيء من الدقّة من خلال ما نصّه في هذا القول:" **أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع والأجناس، مهما رأيت جنساً فيها إلا قلت إن هذا الجنس هو الذي في مصر، فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر، وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها. وكذا أهل الصنائع والحرف فما وَرَدْت قومًا أو سوقاً أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه. وهذا من عجائب مصر، فإن كل ما رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها، لأن مصر تُغني عن الغير ولا يستغني الغير عنها... فليعجب منها المتعجّبون وكيف لا وأنها ذكرت في القرآن كذا وكذا مرة، فهي جنة لأهل الخير ونار في المآل لأهل الشر يحسبها المتأمل أنها جنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأرزاقها أكثر من خلقها، ومع كثرة أرزاقها إن من سدَّ عليه الباب في الرزق يدور الأسواق والدكاكين والوكالات والمساجد وغيرها هذا من عجائبها"**[176] ولعل ما يتميز به الورتلاني هو الصدق في الحديث والصفاء في الشعور، ولقد نجده مغرقا في حديثه عن وصف الحالة التي تنتابه حين رؤيته لمعالم إيمانية أو حديثه عن شخصيات علمية أو دينية خصوصا الشخصيات المتصوفة. أما بخصوص البقاع المقدّسة فقد أهم بنشر عاطفته جياشة فوق معالم نصه الرحلي، وهذا لا يعني أن السفر إلى الحج كان يتم براحة وحب واطمئنان وأمان، وإنما الورتلاني في حديثه لا يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها، حتى بيّن لنا أن السفر إلى الحج كان يتمّ عبر طريق محفوف بالمخاطر، نتيجة السلب والنهب الذي كان يمارسه قُطّاع الطرق على الحُجّاج، فقد كان الحاج يتسلّح بما يلزمه الدفاع عن نفسه، وتوقع هذه العمليات من باب أولى حتى لا تكون المفاجأة عليهم، وقد روى الورتلاني شيئا من هذا فقال: **"رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا إلا قتلوه وأخذوا ماله وذلك معلوم ضرورة، فاستعددنا لهم مع الخوف الشديد"**[177] هذا حتى لا يظن أحد أن رحلة الحج قديما كانت تتمّ بطريقة لائقة وممكنة ويسيرة، وإنما الحذر

---

[175]– نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، مصدر سابق، ص 13.

[176] – نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، مصدر سابق، ص 560، 561.

[177] – المصدر نفسه، ص 449.

كان سيّد الموقف مع أن الحاج لا يمكنه السفر وحده ومن ثم أستحدث الحجاج ظاهرة "الركب" أو القافلة، مع التزوّد بالأسلحة كما حدث مع رحّالتنا حيث كان معهم اثنتي عشر بندقية[178] حتى إنه في بعض المحطات ينسينا عن قدسية الحج جرّاء حديثه عن ظاهرة اللصوصية وانعدام الأمن، الشيء الذي يجعل من الرّحلة بؤرة لظواهر مختلفة، ومشحونة بالمغامرات.

[178] – المصدر نفسه، ص 449.

المحاضرة الرابعة عشر:

العهد العثماني
(6)
أبو راس الناصر المعسكري

1. الجانب الشخصي في حياة أبي راس الناصر

1. 1. عصر أبي راس الناصر

- **. السياسي**

عرفت الجزائر في ذيل المرحلة الأخيرة من عهد الأتراك تحولا كبيرا، فبالرغم من أن البلاد عرفت استقلالا تاما بعد تخليصها من الاحتلال الاسباني لوهران عام ..... فإن عوامل كثيرة وتداعيات خطيرة كانت لها الكلمة الحسم في نهاية تواجد الاتراك بالجزائر منذ 1830..

لقد عرفت الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر استقرارا خلال فترة حكم الداي محمد بن عثمان باشا، وعلى الجهة الشقية الباي صالح باي ومن الجهة الغربية الباي محمد الكبير...

ثم تأتي الفوضى والاضطراب بعد التحول في كسب مغانم ميزانية الدولة، فبعد أن كانت المغانم تأتي من البحر بعد فقدت سيطرتها على البحر المتوسط، فما كان على الحكام العثمانيون إلا فرض الضرائب المجحفة في حق الأهالي، ومن تم بدأ التمرد الأهالي على الحكام الأتراك، بداية بالجزائر العاصمة، ثم الدخول في مواجهات مباشرة بينهم وبين القبائل وأهالي الريف...

أما سياسة الدولة الخارجية، فقد كانت متوترة بين الجزائر والمغرب، والجزائر وتونس لأسباب مختلفة، ولم تشفع العلاقات الخارجية التي كانت بين الجزائر وكثير من البلدان الأوروبية.. بل إن هذه العلاقة التي كانت تعقد في الأغلب على التجارة، وهي التي كانت سببا مباشرا في احتلال فرنسا للجزائر، بعد أن أرهقت الديون المملكة الفرنسية.. وتدخل الداي حسين بالقوة في أول الأمر، وتدبير الجانب الفرنسي لمؤامرة ضده الداي لتكون سببا وذريعة للاحتلال مدعية أن الداي أهان قنصلها.

- **. الثقافي**

اعتمدت الحياة الفكرية والثقافية في الجزائر ابان هذه المرحلة) من التاريخ العثماني في الجزائر(التي عاش فيها أبو راس، على اتخاذ الزوايا والمعاهد أهم مراكز للتكوين العلمي والمعرفي، وكانت هذه المراكز تغطي كامل القطر، وقد ترتب عن ذلك تضاؤل الأمية، أو قل انعدمت الأمية في البلاد، أو على الأقل، السواد من أهل الجزائر كان آنذاك يحسن الكتابة والقراءة، وقد أقر الغربيون أنفسهم بذلك، إذ صرّح أحد الرحالين

معترفا بقوله: "لقد بحثتُ قصدًا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب"[179]لقد كانت الجزائر في عافية ثقافية حين دخول الغزاة المحتلين.

ولم تكن قضية التعليم قاصرة على مجرّد الكتابة والقراءة التي شاعت بين الناس، فهذا أدنى ما كان حاصلا في الجزائر، وهو تعليم قاعدي كانت تحرص عليه الدولة، في حين كان التعليم العالي مرموقا عند الكثير من أهل العلم، وكان العلم منتشرا في العاصمة وقسنطينة وعنابة ووهران ومعسكر والوادي وتلمسان والصحراء، وغيرها من المناطق، وقد كان شدّ الرحال إلى سبيل العلم، أهم قناة للتحصيل والتزكية للإجازة، فتحقق لكثير من طلبة العلم درجات متقدمة في العلم، وكثر العلماء، وعجّت البلاد بهم، وأبرزهم في هذا العصر: أبو راس الناصر، والصادق آفغول وأحمد بن نافلة وأحمد بن عمار ومحمد بن جعدون والمشرفي المعسكري وغيرهم كثير، وأكثرهم المغمورون.

1. 2. حياة أبي راس الناصر.

1. 2. 1. من هو أبو راس الناصر؟

- **اسمه:**

هو محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي الجليلي، يضاف إلى اسمه المعسكري، نسبة إلى بلدته (معسكر) ويكنى بأبي راس لكبر رأسه.

مولده:

ولد في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة18م (1150هـ/1757م)، قرب جبل كرسوط في وادي تاغية بمنطقة تعرف اليوم ب (وزغت)،بالغرب الجزائري بنواحي مدينة معسكر.

- **وفاته:**

عاش أبو راس حوالي 90 عاما، ويرجح حسب ما أفاد به المزاري في كتابة "طلوع سعد السعود" وما جاء –أيضا في كتاب " تعريف الخلف برجال السلف" للحفناوي، أنه توفي في تاريخ 17 شعبان 1283 هجرية (الموافق لـ 27 أفريل 1823م)..، ودفن بمسقط رأسه "معسكر" بعقبة بابا علي.

- **نشأته:**

نشأ أبو راس في بيت صلاح فقد كان جدّه من الأولياء. تربى يتيما بعد فقد والدته وهو صغير، وعبست في وجهه الحياة ومالت به إلى الفقر والعوز، ثم توفي والده ورعاه أخوه الأكبر.

حفظ القرآن الكريم وهو صغير، وانتقل بين عدة مراكز علمية داخل الوطن وخارجه، فكان يتردد على علماء متيجة ومجاجة، ومازونة وغيرها من المراكز، وسافر بصحبة أخيه إلى المغرب.

---

[179]– أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، ص 1975 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 13.

لقد كان التحصيل العلمي بالنسبة لأبي راس صعب المنار، ومحفوف بالتعب والمشاق. لكنه سرعان ما صار له صيت في هذا الباب، وصارت له مكانة بين شيوخ عصره، وأصبح واحدا من أهم علماء عصره يقصده الطلاب من كل مكان.

- **مكانة أبي راس**

نبغ أبو راس وبرز بين أقرانه، وجلب الانتباه مبكرا، مما رشحه لتولي القضاء وهو شاب، وكان يزاوج بين التدريس والقضاء، وكان يقضي حياته بين غريس ومعسكر.. ثم استقر في مدينة معكسر التي كانت حافة بالعلماء الأعلام.. ومع الأيام تمكن من فرض نفسه كعالم يجيد التأثير في الناس، فكان يعقد مجالس علمية بالمسجد، فكانت مجالسه تضيق أرجائها بطلبة العلم والفضولين من عامة الناس.. وكان خلالها يظهر قدرة علمية وتضلع في فنون شتى، مع ظرفه وطرافته، وإجادته العميقة تدل على اطلاعه الواسع.

لم تبق مكانة أبي راس محلّية، بل أخباره تجاوزت ربوع الوطن، لتكون في شتى الأصقاع، وقد أثبت هذه الأحقية حين كان يسافر إلى المشرق العربي ومغربه، فكان يجادل ويناظر، وكان صاحب حجة، فكسب ود الناس واحترام العلماء..

ترك أبو راس الناصر مجموعة من المؤلفات أثرا باقيا، يدل على قيمته الفكرية والعلمية، وخلف وراءه مائة وستة وثلاثون مخطوطة منها الموجود ومنها المفقود، وهي متوزعة بين تاريخية وأدبية، وعلمية، أما المطبوع منها نجد له منها:

- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.
- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار
- زهرة الشماريخ في علم التاريخ
- مجمع البحرين، ومطلع البدرين، بفتح الجليل، للعبد الذّليل، في التّيسير إلى علم التّفسير.
- الآيات البيّنات، في شرح دلائل الخيرات.
- مفاتيح الجنّة وأسناها، في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها.
- الأحكام الجوازل، في نُبذ من النّوازل.
- المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.
- النكت الوفية، بشرح المكودي على الألفية.
- الزّهر الأكم، في شرح الحكم.
- الحاوي لنبذ من التّوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى.
- شرح العقد النّفيس، في ذكر الأعيان من أولياء غريس.
- التّشوّف إلى مذهب التّصوّف.
- زهرة الشّماريخ في علم التاريخ.

- المنى والسّول، من أوّل الخليقة إلى بعثة الرّسول.
- درّ السّحابة، فيمن دخل المغرب من الصّحابة.
- درّء الشّقاوة في حروب درقاوة.
- الحلل السّندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية.
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطّاس.
- مروج الذّهب في نبذة من النّسب، ومن انتمى إلى الشّرف وذهب.
- عجائب الأسفار، ولطائف الأخبار"، والمسمّى أيضاً "غريب الأخبار عمّا كان في وهران والأندلس مع الكفار.

وله أيضا في الشروحات الأدبية:

- النّزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية.
- الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية.
- البشائر والإسعاد، في رح بانت سعاد.
- نيل الأرب في شرح لامية العرب.
- كل الصّيد في جوف الفرا.
- إزالة الوجم عن قصيدة لامية العجم.
- الدّرّة الأنيقة في شرح العقيقة.
- طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي.
- نظم الأديب الحسيب، الجامع بين المدح والنّسيب والتّشبيب.
- الرِّياض المرضية في شرح الغوثية.

2. الجانب الأدبي في حياة أبي راس الناصر

- **أدب الرحلة عند أبي راس**

ظهر أبو راس الناصري كعَلَم من أعلام الجزائر البارزين في ميدان العلم والرحلة في الأيام الأخيرة من العهد العثماني الذي سيطر عليه الجمود، وقد كشف من خلال تآليفه الكثيرة ما لهذه الشخصية من الوزن، ومنها رحلته التي تعدّ كشّاف على ما نقول، حيث أبرز من خلالها جملة من التعابير الذاتية الخاصة بطلبه للعلم ومآخذه من العلماء، وسفرياته من أجل ذلك، وقّعَ عنوانها بـ"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته". ومن الباحثين من يصنّفها ضمن الحجازيات، ومنهم من يرى أنها تصنّف ضمن الرحلات العلمية، كما أن منهم من يعدّها من الرحلات، وفئة تدرجها في لفيف السيرة الذاتية، وهي بين هذا وذاك تأخذ من كل فنّ بطرف، وبما أن بها ما يوحي بالسفر والتنقل من مكان إلى مكان ومن بلاد إلى بلاد، فلها ما يبرّر تصنيفها في جملة النصوص الرحلية.

وقد قسّمها صاحبها إلى خمسة أبواب، تحدّث في بابها الأول عن طفولته وتعليمه، وأحواله الشخصية كزواجه وحجّه، أما الباب الثاني فقد خصّه للعلماء الذين أخذ عنهم،والذين التقى بهم وأجازوه والذين ناظرهم، مستهلاً بوالده مروراً بعلماء الجزائر والمغرب ثم تونس ومصر والحجاز والشام.أما الباب الثالث فقد خصّصه لرحلته بالمشرق وما تعلق بها، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه اسم "حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي"، كما أن من الباحثين من يرى بأن هذا العنوان لرحلة أخرى لا تزال في قيد المخطوط. أما الباب الرابع فقد تناول فيه الأسئلة التي وردت إليه، أو ألقيت عليه أثناء تنقلاته، كما ذكر الأجوبة عنها، وفي الباب الخامس والأخير ذكر فيه تآليفه مرتبة حسب المواضيع ومادتها.

وحتى وإن صَنّف بعض الدارسين رحلة أبي راس ضمن الحجازيات (رحلات الحج) فإن نمطها الحقيقي هو علمي بامتياز، يشفع له فيها ما ذكره، من ملاقاته للعلماء ومناظرته لهم كقوله حين دخوله مصر: "لقيت بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب والأخبار: الإمام الأرضى،.. شيخنا السيد مرتضى، ففاوضته في فنون، فوجدته كما لي فيه من الظنون، ورويت عنه أوائل" الصحيحين "و"رسالة القشيري"، و"مختصر العين " و"مختصر الكنز الراقي ." وأجازني بالباقي"[180] فقد كان أبو راس كلما دخل مدينة لا يتحدّث إلا عن العلم فيها وعلمائها، ومرافئ العلم وملاقاته للشيوخ، وتصانيف العلم، وبذلك تكون المدينة التي دخلها أحلى له وأبهى، وليست قفرا كما وصف مدينة العريش بقوله: "ثم رحلت إلى العريش فلم أجد بها عالما آنس إليه ويكون التعويل عليه"[181] وهي دلالة كافية إلى أن الحكم على البلاد من خلال شعابها العلمية.

وشأن رحلة أبي راس كشأن غيرها من رحلات فترة الحكم العثماني في الجزائر، من حيث أنها أفضل من يُتَرْجم لشخصها وذلك لانعدام من اهتم بهذا الميدان من العلم في فن التراجم وسير العلماء، وهي إشارة ضمنية لفقْدنا الكثير من علماء الجزائر في تلك الحقبة حيث كان يقتضي من كل عالم أن يترجم لنفسه وهو الأمر الذي لم يحدث إطلاقا وما حدث في تاريخ البشرية أن تكون الترجمة الذاتية كافية لاحتواء عدد معتبر من علماء العصور السابقة. وإن كنّا نحمد لهذه الرحلات التي عرّفت بأصحابنا فإننا في الوقت نفسه نعبّر عن أسفنا عن فقدنا لكثير من العلماء الذين ضاعوا في هامش التاريخ، ونحسب أن البيئة لم تنجب ولم تحقّق لنا من العلماء.

ثم إن رحلة أبي راس لم تكن عفوية، انطلاقا من قوله: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة ابن رشيد السبتي، والخطيب المرزوقي، ورحلة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي.."[182] وهذا ما يوحي بأن هذه الرحلة جامعة وليست لها مقصد واحد، وبابها الأساس هو السعي في تحصيل العلم وتنقيح تحصيله، فكانت أول محطة من محطاته الجزائر العاصمة التي خصها بالذكر

---

[180]- فتح الإله ومنته، مصدر سابق، ص 115-116.

[181]- المصدر نفسه،ص120.

[182]- المصدر نفسه، ص91.

من خلال علمائها كالشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون183وغيره من العلماء وحواراته معهم وتبجيلهم له، كما هو الحال عند وصوله قسنطينة ولقائه بعلامتها الشيخ الونيسي. ومن قسنطينة يعود للحديث عن رحلته إلى فاس (المغرب)، ومن فاس إلى تلمسان ثم تونس، ونزوله عند شيخها المفتي محمد بن المحجوب (ت 1243هـ) وغيره من العلماء والأدباء كالرياحي، ومن تونس توجه بحرا على مصر بها لقي أهل العلم والأدب، منهم الشيخ مرتضى، كما زار الشام، بعد زيارته مكة، حيث اجتمع بعلمائها وفقهائها، كالعلامة عبد الملك الحنفي المفتي الشامي القلعي(ت 1229هـ) الذي أخذ عن علمائها علوما شتى؛ منها الحديث وعلم التفسير ومسائل الفقه، كما كانت له مناظرات وأبحاث مع علمائها، وتعد هذه الرحلة مزدوجة بين العلم والزيارة، فقد كانت زيارة روحية مما ناله من شرف المكان، إذ كانت فرصة لزيارة ضريح المصطفى ﷺ ،وضريحي صاحبيه أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما–، وقبور الصحابة بالبقيع.

وعموما فرحلة أبي راس غنيّة بمعلوماتها حول قضايا متعددة أبرزها العلم ومراكزه والعلوم المنتشرة في زمانه، والشيوخ البارزين، والمادة العلمية التي كانت سائدة، كما أنها تبيّن من جهة أخرى الجانب الأدبي الذي تمركز في نثره وشعره من حيث عرضه لموضوعاته، وهو لا يشذّ على ما كان سائدا من أسلوب نثري في ذلك العصر.

183– ينظر المصدر نفسه، ص91.

قائمة المصادر والمراجع

1. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح احسان عباس، دار صادر بيروت 1968.
2. إبراهيم أنيس، (إشراف) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004.
3. الأخضر السائحي، بكر بن حماد شاعر المغرب العريب في القرن الثالث الهجري، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
4. بشير خلدون، الحركة النقدية أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
5. أبو الحسن ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هندوي. المكتبة العصرية صيدا، بيروت ط1، 2001م.
6. الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في علم التاريخ والآثار، نشر محمد ابن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008.
7. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت.
8. خير الدين الزركلي، الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 15، 2008.
9. رابح بونار، ديوان المنداسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.
10. رابح بونار، المغرب العربي (تاريخه وثقافته) ،دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، د ت.
11. ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل ،كولونيا، ألمانيا ، ط1 ، 1998.
12. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
13. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط5 ،1965.
14. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج 10، 1995.
15. طاهر توات، ابن خميس وشعره ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.
16. عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، د ت.
17. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في عهد الزيانيين، منشورات موفم للنشر، 2002.
18. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، ش و ن ت، الجزائر، 1974.
19. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
20. عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية بيروت، ط2، 1972م.
21. عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين 9- 20الميلاديين (14/3 هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
22. عبد الله محمد عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1990.

23. بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وفرنسا إلى آخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.
24. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار النشر المصرية، مصر، د ت.
25. لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
26. محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
27. محمد عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
28. محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، منشورات موفم للنشر، 2011.
29. محمد حسن عبد الغني، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة. 1955.
30. مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب – في عصري الموحدين وبني مرين–، ديوان المطبوعات الجامعية–الجزائر، 1982م.
31. مصطفى الشكعة، منهج التأليف عند العلماء العرب – قسم الأدب .دار العلم للملايين، بيروت. 1973.
32. (ابن منظور) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مج1 ، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997.
33. محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي، ط1، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966.
34. محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900 و1962، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983.
35. محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007.
36. مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني–عرض ودراسة–، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1998.
37. هاني العمد، دراسات في كتب التراجم والسير .عمان. 1981.
38. ناصر الدين سعيدون، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999.
39. وداد القاضي، معاجم التراجم، تنظيمها الداخلي وأهميتها الثقافية، في" الكتاب في العالم الإسلامي، تحرير جورج عطية وترجمة عبد الستار الحلوجي، عالم المعرفة، الكويت. 2003 .
40. ياقوت الحموي: معجم الأدباء – دار المأمون ، القاهرة، ط 2 ، 1936م ، ج 7.
41. أبو يعقوب يوسف ابن إبراهيم الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تحقيق يحي بن بهون حاج امحمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007.
42. يحي بو عزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995.
43. يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.